

رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا











د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

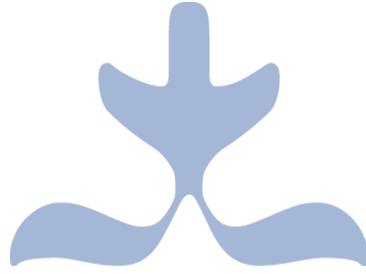
إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:



جغرافية القرآن

باب فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم



باب: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ

معنى كلمة أفئدة:

عند متابعة حديثنا عن قصة إبراهيم، كان لابد من أن تكون الآية الكريمة التالية حاضرة في النقاش، قال تعالى:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

لتنهال الأسئلة حول ما جاء في هذه الآية الكريمة من كل حدب وصوب في محاولة منا أن نفهم ما حصل فعلا على أرض الواقع حينئذ. ومن أجل هذه الغاية، سنحاول ابتداء طرح سؤال واحد، علّنا -بحول الله وتوفيق منه- أن نصل إلى بعض الأجابات التي يمكن أن تجلّي لنا صورة الأحداث كما حصلت على أرض الواقع. والسؤال الذي نطرحه هنا هو: كيف هوت أفئدة من الناس إلى ذلك المكان المقفر الذي كان يتواجد فيه من أسكنهم إبراهيم من ذريته هناك؟ وبكلمات أكثر دقة، نحن نحاول أن نفهم السبب الذي جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) والآلية التي من خلالها هوت تلك الأفئدة إلى ذلك المكان غير ذي الزرع الذي كان للتو مهجورا، مقفرا، لا يسكنه أحد من الناس في تلك الفترة من الزمن.

أما بعد،

في أطار محاولتنا للإجابة على هذا التساؤل، وجب علينا (كالعادة) أن نضع مفردات الآية الكريمة ذاتها تحت المجهر، علّنا نستطيع (إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها) أن نستنبط منها ما يرشدنا إلى مبتغانا من طرحنا هذا. لذا، لابد من التعرض لمفردات الآية الكريمة الواحدة تلو الأخرى قبل التجرؤ على تقديم افتراءاتنا حول الحادثة ذاتها. والمفردات التي سنضعها حالا على طاولة البحث هما مفردتان اثنتان: تهوي و أفئدة.

السؤال الأول: ما معنى تهوي؟

رأينا المفترى: عند استعراض مفردة تهوي (ومشتقاتها) من السياقات القرآنية التي وردت فيها، سنجد أن الفعل هوى يحصل على نحو حركة سريعة جدا من الأعلى، بدليل قوله تعالى:

- ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: 31]

نتيجة مفتراة 1: الهوى يتم إلى مكان سحيق (كالوادي)، وليس أدل على ذلك من الهاوية، وهي مصير من خفت موازينه:

- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: 8-11]

لذا، لابد أن نفهم بان النجم إذا هوى مثلا:

- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]

فهو يهوي إلى واد، وليس أدل على ذلك – برأينا- من أن المكان الذي يهوي فيه النجم هو الواد المقدس طوى. (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان أين تمت مناداة الله نبيه موسى؟)

نتيجة مفتراة: الفعل "هوى" يحدث بسرعة كبيرة جدا، كالذي يهوي في مكان سحيق، أو كما يهوي النجم في الواد المقدس. لذا نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأن أفئدة الناس قد هوت إلى من كان من ذرية إبراهيم في ذلك الواد غير ذي الزرع بسرعة كبيرة جدا. وهنا يظهر السؤال التالي مباشرة: ما الذي جعل أفئدة الناس تهوي إلى ذلك المكان بسرعة كبيرة جدا بعد دعوة إبراهيم تلك؟

رأينا المفترى: قبل محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل، علينا أيضا أن نطرح التساؤل التالي: لماذا هوت الأفئدة أصلا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في النص القرآني في مفردة الهوى، لوجدنا بأن الهوى غالبا ما يكون للأنفس، كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝٢٣﴾ [النجم: 23]
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ [المائدة: 70]

ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين هوى النفس وهوى الفؤاد؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا النص القرآني جيدا، لوجدنا بأن هوى النفس هو أمر مذموم على الدوام، لذا نهى الله عن اتباع ما تهوى الأنفس:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: 135]
- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]
- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [النجم: 3]
- ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠﴾ [النازعات: 40]

فجميع الذين اتبعوا الهوى، قد ضلوا عن سواء السبيل:

- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: 120]
- ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]
- ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة: 48-49]
- ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩﴾ [الأنعام: 119]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد: 37]
- ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: 71]
- ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: 50]
- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم: 29]

- ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: 15]
- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد: 14]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ [محمد: 16]
- ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ [القمر: 3]

وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- مصير الذين اتبعوا هواهم جميعا:

- ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]
- ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: 28]
- ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: 16]
- ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43]
- ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: 50]
- ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

فهناك من اتبع هواه عن علم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد: 37]
- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: 120]
- ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]
- ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: 49]

وهناك من اتبع هواه بغير علم:

- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: 119]
- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: 29]

وهناك من اتبع الهوى بغير هدى من الله:

- ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: 50]

واتباع الهوى يحصل عندما يتعطل عمل القلب، سواء بأن يطبع الله على قلبه أو من أغفل الله قلبه عن الذكر:

- ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]
- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: 16]

وهنا نجد من اتبع هواه بسبب ما زُين له من سوء عمله:

- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: 14]

وفي جميع هذه الحالات، تكون النتيجة وخيمة:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 176]
- ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: 16]

ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين أن يهوى الفؤاد وما تهوى الأنفس؟

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

إن هذا العرض السابق يوصلنا إلى النتيجة المفتراة بأن الهوى شيء مذموم، منهي عنه، لأن عاقبته وخيمة. لكن يبرز التساؤل الآن على نحو: ماذا عن هوى الأفئدة؟ هل هو أمر مذموم؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. وذلك لأن إبراهيم قد طلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى من أسكن من ذريته هناك عند بيت الله المحرم؟

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

فلو كان الأمر فيه شيء من الذم، لما طلب إبراهيم من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم في ذلك المكان الذي ما زال للتو مقفرا موحشا، فهو - لا شك - واد غير ذي زرع. فما هو إذا هوى الفؤاد؟

رأينا المفترى: من أجل التعرف على هوى الفؤاد، علينا أن نطرح التساؤل حول معنى الفؤاد، فما هو الفؤاد؟

جواب مفترى: عند البحث في النص القرآني عن مفردة الفؤاد، وجدناها قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: 120]
- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: 10]
- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا الترابط واضحا بين كينونات ثلاثة هي: السمع والبصر والفؤاد:

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون: 78]
- ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: 9]
- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٢٦﴾ [الأحقاف: 26]
- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ [الملك: 23]

ليكون السؤال الذي يجب أن يطرح على الفور هو: لماذا؟ أي لماذا تلازم التجاور بين هذه الكينونات الثلاثة وبهذا الترتيب (سمع ثم بصر ثم فؤاد)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذه هي أدوات استقبال المعلومة عند الإنسان، فالمعلومة تستقبل سمعيا عن طرق الآذان أو بصريا عن طريق الأعين أو حدسيا عن طريق الفؤاد، والسمع يسبق البصر الذي بدوره يسبق الفؤاد. ويقوم القلب بمعالجة المعلومة التي تستقبلها هذه الأجهزة الثلاثة بالتعقل:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46]

السؤال المحوري: إذا كانت الأذان تسمع والأعين تبصر والقلوب تعقل، فماذا تفعل الأفئدة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مفردة الأفئدة هي جمع لمفردة الفؤاد، وقد جاء ذكر الفؤاد والأفئدة في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]
- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: 120]
- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: 36]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم: 11]
- ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام: 113]

- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: 26]
- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]
- ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: 7]
- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: 110]
- ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: 43]

ومن خلال هذه السياقات، نستطيع تسطير الافتراءات التالية:

⇐ الأفئدة يمكن أن تثبت، لأنها تقلّب
⇐ الأفئدة تصغي
⇐ الأفئدة ترى
⇐ الأفئدة قد تكون هواء
⇐ الأفئدة قد تكون فارغة
⇐ الخ

السؤال: ما هو الفؤاد؟

رأينا المفترى: بداية دعنا نسطر الافتراء الخطير التالي: الفؤاد هو الأداة التي تمكّن الإنسان من القدرة على التخيل (imagine). فالمعلومة قد تدخل إلى عقل الإنسان (أي قلبه) من خلال السمع بالأذان أو من خلال البصر بالأعين أو من خلال الأفئدة بالتخيل.

الدليل

لو دققنا في الآيات الكريمة التي جمعت عمليات استقبال المعلومة بهذه الطرق الثلاثة، لوجدنا شيئا يسترعي الانتباه، ألا وهو صيغة المفرد والجمع لهذه الكينونات الثلاثة (السمع والبصر والفؤاد).

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدناها قد جاءت كلها بصيغة المفرد (السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ):

- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36]

لكن لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن السمع على وجه التحديد لا يرد بصيغة الجمع (ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ):

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [المؤمنون: 78]
- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة: 9]
- ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23]

ليكون السؤال: لماذا؟ أي لماذا يأتي السمع في النص القرآني بصيغة المفرد ولا نجد صيغة جمع (مثل الأسماع) كما قد يحلو لأهل التقعيد أن يسطروا بأقلامهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه في حين تختلف الأبصار والأفئدة من شخص إلى آخر أو حتى عند الشخص الواحد، فإن السمع واحد لا يتعدد إطلاقا. فإن نظرت أنا وأنت بأعيننا إلى صورة ما، فقد ترى فيها أنت ما لا أراه أنا، والعكس صحيح. ولو رأى عشرات الناس موقفا (حدثا) حصل أمام أعينهم، ثم طلب من كل واحد منهم أن يصف ما رءاه بأم عينه، لحصلنا على روايات غير متطابقة، فكل واحد منهم سيروى ما أبصره بعينه، ولا شك ستختلف الرؤية باختلاف الشخص، فالأبصار يمكن أن تعدد.

وكذلك تتعدد الأفئدة التي ترى (بالتخيل). فلو طلب من كل واحد أن يتخيل مكانا أو شخصا ما لم يره بأم عينه من قبل، لأعطى كل واحد منهم صورة ذهنية مختلفة عن تلك التي أعطاها الآخرون.

لكن – بالمقابل- لو نطق الخطيب على مسمع جمهور من الناس بجملة ما، ثم طلب منهم جميعا أن يرددوا ما سمعوا، لوجدناهم جميعا يكررون الجملة ذاتها (طبعا إذا لم يكن عند أحدهم مشاكل بيولوجية في السمع). فعندما يقول المدرس جملة ما، ويطلب من الطلبة ترددادها، تراهم جميعا يرددونها بحرفيتها.

لنخلص من هذا إلى النتائج المفتراة من عند أنفسنا التالية:
السمع لا يتعدد، لذا تأتي بصيغة المفرد على الدوام
البصر يتعدد، لذا يأتي بصيغة المفرد كما يأتي بصيغة الجمع
الفؤاد يتعدد، لذا يأتي بصيغة المفرد كما يأتي بصيغة الجمع

السؤال: كيف نفهم آلية عمل الفؤاد؟

رأينا المفترى: لمّا كان الفؤاد هو – برأينا- الجهاز الموجود في داخل جسم الإنسان الذي يجعله قادرا على التخيل، فإنه يرسم صورا مختلفة للشيء الواحد بناء على عوامل وظروف معينة خاصة بالشخص. فالشخص يرسم صورة ذهنية لشيء ما بناء على ما سمع بأذنيه وعلى ما أبصر بعينيه، لذا فإن فاقد البصر

مثلا يتخيل بناء على ما سمع فقط، ولا يستطيع أن يستفيد من البصر لكي يرسم صورة أكثر وضوحا في فؤاده عن الشيء الذي يتخيله. ولكن الإنسان أيضا قادر على رسم صورة ذهنية حتى للأشياء التي لم يسمع بها ولم يبصرها، كما في حالة تشبيه نسوة العزيز ليوسف بالملائكة:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

فبالرغم من عدم رؤيتهن للملك من ذي قبل، إلا أن الصورة الذهنية حاضرة في أفئدتهن، فما أن رأين يوسف حتى تم استدعاء تلك الصورة الذهنية على الفور، ونحن نفتري الظن بأن هذا الاستدعاء يتم عن طريق الفؤاد.

السؤال: أين هو الفؤاد في جسم الإنسان؟

رأينا المفترى: لو دققنا التلازم بين الأعضاء الثلاثة السمع والبصر والفؤاد كما ترد في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: 36]
- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون: 78]
- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: 9]
- ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ [الملك: 23]

لكان السؤال الغريب التالي مطروحا على الفور: لماذا لم يُذكر لنا صراحة أين تتواجد الآذان أو الأعين؟

جواب مفترى: لأن مكانهما معروف لا يحتاج لتفصيل. فالآذان والأعين متواجدة كأجزاء من رأس الإنسان.

السؤال: ما دام كذلك، لم لم يذكر لنا أين يتواجد الفؤاد (الأفئدة) في جسم الإنسان كجهاز استقبال للمعلومة؟

رأينا المفترى الخطير جدا: لأنه موجود في نفس العضو الأكبر الذي يشمل الآذان والأعين (أي في الرأس). انتهى.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من أساسيات القص القرآني (كما نفهمها طبعا) هي أن النص لا يذكر المعلومة بحد ذاتها إلا إن كانت مخالفة. انتهى

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه لا داع أن يذكر النص القرآني أن نساء الرسل مؤمنات لأن ذلك من البديهيات (لا بل فإن ذكر ذلك يقع في باب الحشو الذي لا طائلة منه)، ولكن إن وجد أن أحد نساء الأنبياء ليست مؤمنة، وجب حينئذ ذكرها بالنص كما حصل مع امرأت نوح وامرأت لوط:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

وبالمقابل، لا يوجد مبرر أن يذكر القرآن بصريح اللفظ أن نساء الكافرين كوافر إلا إن كان هناك مخالفة كامرأة فرعون:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

ولا تستدعي الحاجة أن يذكر صراحة في النص القرآني أن أبناء الأنبياء مؤمنين لأن ذلك من البديهيات، لكن إن كان هناك مخالفة وجب ذكرها كما حصل مع ابن نوح:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]

السؤال: ما علاقة هذا بموضوع تواجد الفؤاد في الجسم (وبالتحديد في الرأس)؟

رأينا المفترى: مادام أن الفؤاد قد لازم السمع والبصر في القص القرآني، ومادام أنه لم يذكر مكان أي منهما، فالاستنباط هو أن تكون جميعها مجتمعة في العضو الواحد الذي يحويهم جميعا، وهو الرأس.

السؤال: هل هناك دليل على قاعدتك المشبوهة هذه؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نعم. هناك دليل نظن أنه يثبت ما نقول. فلو تفقدنا السمع والأبصار، لوجدناها مصاحبة كذلك لمفردة القلب (القلوب) كما صاحبت مفردة الفؤاد (الأفئدة):

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ [الأنعام: 46]

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]

لو كانت هذه الآيات هي وحدها التي وردت في كتاب الله، لربما وقعنا في اشكالية تحديد مكان القلوب لأنها (كما الأفئدة) قد صاحبت الأذان والأعين، ولربما اضطررنا حينئذ أن نظن بأن القلوب جزءا من الرأس إن أردنا التسليم بقاعدتنا المشبوهة تلك، أو أن نتخلى كليا عن تلك القاعدة المشبوهة ونبحث عن ما هو خير منها. لكن ما يثير الألباب هو الملاحظة التالية: لم جاءت آية كريمة واحدة فقط تحدد مكان القلوب على وجه التحديد؟

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

السؤال مرة أخرى: لم جاء تحديد مكان القلوب واضحا في الصدور (وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)؟ ولم لم يأت النص القرآني ليحدد مكان الآذان أو الأسماع أو الأفئدة كما حدد مكان القلوب؟ فكيف سنتعرف على مكانها جميعا دون تحديد واضح؟ ألا يمكن أن يخرج علينا أهل المجاز ليذهب بالبصر حيث يشاء وبالسمع إلى حيث يريد؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فالنص القرآني لا يدع مجالا للتقول عليه، لأنه ببساطة قد فصل كل شيء، فأنا أستطيع تحديد مكان واحدة منها (كالعيون التي تبصر)، والتلازم شبه الدائم بين الثلاثة (الآذان والأسماع والأفئدة) تكون متواجدة في العضو نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]

لوجب علينا تحديد مكان العينين في الجسم. وحتى لا يبقى النص عرضة للأهواء وتجويز ما لا يجوز عند أهل المجاز، نجد النص القرآني يقدم لنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]

فالقميص قد ألقي على الوجه لأن العينين اللتين ابيضتا متواجدة في تلك المنطقة، ولكنها بالتأكيد (نحن نفتري الظن) ليست جزءا من الوجه، وإلا لأصبحنا واقعين في مشكلة عندما نقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾ [آل عمران: 106]

فحتى لا تبيض العيون (فيغيب البصر كما حصل ليعقوب) عندما تبيض الوجوه في يوم القيامه، كانت الأعين ليست جزءا من الوجه، وإنما جزء من الرأس، فهي تسمح مسحا خارجيا في الوضوء، ولا تغسل غسلا كباقي مكونات الوجه ومنها الفم والأنف. وكذلك هي الآذان تمسح مسحا خارجيا لأنها جزء من الرأس، وكذلك هو الفؤاد يمسح مسحا خارجيا بتمرير الماء على أعلى الرأس من مقدمته حتى نهايته الخلفية. (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟).

نتيجة مفتراة 1: الأذان والأعين والأفئدة محلها الرأس، وهي جميعها أدوات استقبال المعلومة
نتيجة مفتراة 2: أما القلب فمحله الصدر وهو أداة معالجة المعلومة

السؤال: كيف أصبح فؤاد أم موسى فارغ؟

رأينا المفترى: افترينا الظن في مقالات سابقة لنا أن ذلك حصل عندما جمع فرعون قومه وبني إسرائيل معا ليستبين جنسية الطفل البرمائي (موسى)، فتخيلنا بفؤادنا بأن فرعون قد أمسك ذلك الطفل في الصباح بعد أن حشر الناس أجمعين. وتل الطفل للجبين، ووضع سكين الذبح على رقبة الطفل، وطلب من الحضور أن يشاهدوا ذلك بأم أعينهم، وكان مراده من ذلك (نحن نتخيل) أن يدلي من يعرف من الحضور عن هوية الكفل بكل ما في جعبته، وإلا فإنه ذابح الطفل بالسكين التي كادت تحز رقبة الطفل أمام أعينهم جميعا. وكانت أم موسى حينئذ من الحاضرين لذلك المشهد الرهيب. فأصبح فؤادها فارغا (أي ممتلأ حتى نهايته) بالصور الذهنية (التخيلات) لما سيكون من أمر الطفل بعد أن تمشي سكين فرعون الحادة في رقبته التي لازالت غضة طريّة. ولك عزيزي القارئ أن تتخيل – إن شئت- شعور الأم في تلك اللحظة التي ترى ذبح ولدها بالسكين الحادة بأم عينها. فكادت أم موسى لتبدي به (نحن نتخيل) من كثرة الخيالات والصور الذهنية التي تبدّت لها حينئذ في فؤادها من منظر دم الطفل (ولدها) الذي سيسيل بعد لحظات، وانفصال رأسه عن جثته، فما عادت قادرة (نحن ما زلنا نتخيل) على تحمل تلك الصور التي جلبها لها فؤادها في تلك اللحظة، فكادت أن تبدي به، أي كادت أن تصرخ بأعلى صوتها، لتبوح بهويته (أي لتعترف بنسب الطفل)، ظانة أن فرعون سيتوقف حينئذ عن ذبحه. وهنا بالضبط تدخلت الإرادة الإلهية، فربطت على قلبها الذي في صدرها، عضو اتخاذ القرار:

- ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]

السؤال: كيف يمكن الاستفادة من هذه الافتراءات لبيان ما بدأنا به في الآية الكريمة الخاصة بما حصل على أرض الواقع من جراء دعاء إبراهيم التالي:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

السؤال: كيف هوت أفئدة من الناس إلى ذلك المكان؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان العهد الأول لإبراهيم بذلك المكان هو أن الله قد بوأ له مكان البيت:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]

فكان إبراهيم هو أول من أعاد التوطين في مكان البيت بعد أن كان قد أصبح أثرا بعد عين على مر الزمان منذ الخلاف الذي نشب بين ابني آدم على ملكيته. فالذي يتبوأ مكانا هو الذي يستخدمه عن اختيار منه، وليس أدل على ذلك مما حصل عندما تبوأ موسى وأخوه هارون لقومها بمصر بيوتا:

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس: 87]

وهذا يوسف هو من كان يتبوأ في أرض مصر ما يشاء منها بعد أن مكن الله له فيها:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: 56]

وهكذا يكون تبوء الدار والإيمان في الدنيا والآخرة:

- ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [النحل: 41]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨﴾ [العنكبوت: 58]

فإبراهيم قد تبوأ مكان البيت بأمر من الله:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

فما كان من إبراهيم إلا أن يختار هذا المكان ليُسكِن فيه من ذريته:

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

وطلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. لنعيد السؤال الأول ذاته هنا، ألا وهو: كيف هوت أفئدة من الناس إلى ذلك المكان (الواد) غير ذي الزرع؟ ولماذا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق التاريخي لذلك الحدث، لوجدنا الناس حينئذ على عادة عبادة الأصنام، بدليل أن إبراهيم قد طلب من ربه هناك أن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 35-37]

السؤال: ماذا يفيدنا هذا في موضوع هوى أفئدة من الناس إلى المكان؟

رأينا المفترى: لقد كانت عبادة الأصنام شائعة في البلاد التي تركها إبراهيم وراء ظهره في قومه:

- ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74]

كما انتشرت عبادة الأصنام في أماكن أخرى بدليل ما وجده موسى وقومه يوم أن نجاهم الله من فرعون وجاوز بهم البحر حيث كان القوم في تلك القرية التي مروا بها على عادة عبادة الأصنام:

- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]

نتيجة مفتراة: كانت عبادة الأصنام عبارة عن عكوف

- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: 71]

السؤال: ما معنى العكوف على عبادة الأصنام؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العكوف على عبادة الأصنام تتطلب وجود تلك الأصنام في مكان محدد بذاته. انتهى.

السؤال: وهل يمكن أن تتواجد الأصنام للاعتكاف في أي مكان؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالاعتكاف على عبادة الأصنام تتطلب تواجد تلك الأصنام في مكان له مواصفات معينة حتى تكون مقبولة عند العامة من الناس.

السؤال: وأي مكان يمكن أن تتواجد فيه الأصنام التي يمكن أن يعكف عليها الناس؟

رأينا المفترى: إنه المكان الذي يتخذه الناس وجهة لهم لأداء فريضة الحج (المنسك). انتهى.

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: 67]

والمنسك مرتبط على الدوام بشعيرة الحج:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: 34]
- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: 128]
- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: 199-200]

تخيلات مفتراة: كان الناس في زمن إبراهيم على عادة الاعتكاف على عبادة الأصنام. لكن تلك الأصنام لم تكن في موطنها الحقيقي. فالناس كانوا (نحن نتخيل) يظنون أن مكان الحج الذي يجب أن تكون فيه الأصنام هو مكان البيت العتيق:

- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: 29]
- ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: 32-34]

فمناسك كل أمة لا يمكن أن تطبق إلا في مكان محدد بذاته، وقد كان هوى الناس على مر الزمان قبل إبراهيم (نحن نتخيل) متعلقا بالبيت العتيق، لكن كانت مشكلة تلك الأقوام هو عدم قدرتهم على تحديد مكانه بالضبط بعد أن جرت عليه عوامل البيئة، فمحت آثاره عن وجه الأرض وإن بقيت قواعده تحت الأرض. فكان ما فوق الأرض منه أثرا بعد عين. وقد اختلف الناس حينئذ (نحن نتخيل) في تحديد مكان البيت العتيق. فاتخذت كل أمة منهم منسكا، ليذكروا اسم الله فيه، فكانت أصناهم في أماكن مختلفة ومتناثره، وكانت تلك الأصنام هي التي – برأيهم- تقربهم إلى الله زلفى:

- ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: 3]

فتشتت المناسك لتلك الأمم، لاختلاف الناس في ألهتهم التي كانوا يظنون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وذلك بسبب عدم اتفاقهم على مكان البيت العتيق الذي كانت أفئدتهم معلقة به حتى وهم لا يستطيعون العثور عليه.

السؤال: ما الذي حصل عندما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت؟

رأينا المفترى: ما أن بوأ الله لإبراهيم مكان البيت حتى جاءه الأمر الإلهي بأن يؤذن في الناس بالحج إلى مكان البيت العتيق:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27-26]

السؤال: كيف أذن إبراهيم في الناس بالحج؟

رأينا المفترى: حتى نفهم معنى الآذان وكيفية تنفيذه على أرض الواقع، علينا أن نحاول التمييز بين الآذان (وأذن في الناس بالحج) من جهة والنداء (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) من جهة أخرى، لتكون التساؤلات الآن هي على النحو التالي:

⇐ ما هو الآذان؟
⇐ كيف ينفذ الآذان؟
⇐ لماذا يحصل الآذان؟
⇐ متى يحصل الآذان؟
⇐ ما هو النداء؟
⇐ كيف ينفذ النداء؟
⇐ لماذا يحصل النداء؟
⇐ متى يحصل النداء؟
⇐ ما فائدة التفريق بين الآذان والنداء؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الفرق بين الآذان من جهة والنداء من جهة أخرى يتمثل في أمر بسيط جدا مفاده أنه في حين أن الآذان ليس أكثر من بلاغ يتم إيصاله إلى أذن الشخص المقابل، فإن النداء هو عبارة عن طلب يتم إيصاله إلى الطرف الآخر ليتم الاستجابة عليه. انتهى.

الدليل

لو حاولنا بداية التفكر بمفرد الآذان، لوجدنا بأن لها علاقة مباشرة بالأذن (أداة السمع):

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]

فالشخص الذي يؤذن يحاول (نحن نظن) أن يوصل رسالة إلى أذن المستمعين كخبر للعلم به، ولا يتوجب على السامع أن يتخذ أي اجراء يتعلق بشخص المؤذن نفسه. فالآذن ليس طلبا خاصا من المؤذن يوجهه للطرف المقابل لينعكس اثره على المؤذن نفسه. فلو تدبرنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن المؤذن قد أذن في العير (وهنا انتهت مهمته):

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يوسف: 70-71]

فالمدقق في هذا السياق القرآني يجد أن مهمة المؤذن هو إيصال الخبر للعير بحصول حادثة سرقة، وكفى. كما يجب التنبه إلى أن العير لم يكونوا على دراية بذلك من قبل، لذا جاءت ردة فعلهم على نحو الاستغراب ومحاولة الاستفسار عن تفاصيل تلك السرقة (الخبر الذي نشره المؤذن فيهم). فكان آذان المؤذن بمثابة نشر خبر حصول السرقة. ولتبسيط الفكرة دعنا نضرب المثال التالي: عندما يطلق الناطق الرسمي باسم الدولة خبرا رسميا لإعلام الناس، فإن ذلك الخبر يكون بمثابة آذن فيهم، وعلى الجمهور الموجه لهم هذا الآذان أن يمتثلوا لما جاء في ذلك الإعلان الرسمي، كما امتثلت العير لآذان المؤذن فيهم عندما انتظروا اجراء التحقيق للتأكد من الخبر.

أما النداء – بالمقابل - فهو عبارة عن دعوة يقوم بها المنادي طالبا حاجة خاصة له من المنادى عليه الذي له الحق في الاجابة أو الرفض. فهذا – مثلا- نوح ينادى ابنه، طالبا منه أن يركب معه:

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

لكن الابن رفض الدعوة التي وجهت له على النحو التالي:

- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]

وها هو نوح ينادي ربه مستفسرا عن نجاة ابنه الذي أصابه الغرق، فكان الرد الإلهي قاطعا بالرفض لأن ابنه ليس من أهله:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 45-46]

وها هم أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وكان طلبهم على نحو أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله، لكم كان رفض أصحاب الجنة طلب أصحاب النار الذي جاء بصيغة النداء واضحا:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: 50]

لكن – بالمقابل- ها هو نوح ينادي ربه، فتأتي الاستجابة له بالنجاة:

- ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]

وكذلك كانت الاستجابة حاصلة جراء نداء زكريا ربه:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 89-90]

وكذلك كان نداء أيوب:

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]
- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: 87-88]

نتيجة مفترضة: النداء عبارة عن طلب ما (دعاء) من قبل المنادي يوجهه إلى المنادى عليه الذي يمكن أن يستجيب لذلك النداء بالايجاب أو بالرفض، وذلك لأن النداء يكون محكوم بظروف الحالة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: 4-5]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: في حين أن الآذان هو عبارة عن نشر خبر يوجهه المؤذن للناس لتسمعه آذانهم، فيتحققوا منه، فإن النداء عبارة عن طلب موجه إلى المنادى عليه لكي يلبي دعوة (حاجة المنادي. ولو تفقدنا السياق القرآني التالي:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [الأعراف: 44]

لوجدنا بأن الآية الكريمة قد اشملت على نداء وآذان معا. ففي بدايتها نجد بأن المنادي هنا هم أصحاب الجنة (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ)، والمنادى عليه هم أصحاب النار (أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ)، والطلب هو التحقق مما وجد الطرفان (أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)، فيرد أصحاب النار بالاقرار (قَالُوا۟ نَعَمْ)، ثم يأتي بعد هذا النداء في نهاية الآية الكريمة الآذان التالي الذي هو بمثابة خبر لتسمعه آذان الجميع (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ).

نتيجة مفتراة: الآذن موجه لأذن السامع فقط، ولا يستطيع السامع أن يتخذ قرار بحق الرسالة الموجة له ليردها للمؤذن نفسه. فالمؤذن عبارة عن مخبر فقط. أما النداء – بالمقابل- فهو موجه للطرف المقابل من أجل اتخاذ قرار بحق الطلب الذي يطلبه المنادي. فلا يكفي من المنادي عليه أن يسمع النداء بإذنه، بل عليه أن يتخذ القرار بحق الطلب الموجه له من المنادي. فالمنادي هو طالب حاجة من المنادى عليه.

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن الآذان هو اطلاق خبر، ليتناقله الناس، قال تعالى:

- ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة: 3]

فالمتدبر لهذه الآية الكريمة يجد أن الآذان قد جاء هنا من الله ورسوله، فكان عبارة عن رسالة موجهة إلى الناس جميعا يوم الحج الأكبر (وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ)، ومفاد الخبر (أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)، فعلى جميع الناس أن يسمعوا هذه الرسالة يوم الحج الأكبر. فالمعلومة التي يجب أن تنشر يوم الحج الأكبر بين الناس تحتوي على هذه الرسالة التي محاورها أربعة:

⇐ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ
⇐ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
⇐ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ
⇐ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

(وسنتعرض لهذه المحاور لاحقا إن شاء الله متى اذن لنا بشيء من علمه فيها)

فالله أدعو أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم.

ولا شك عندنا أن الآذان يحتاج إلى مؤذن كما حصل في حالة المؤذن الذي أذن في العير في قصة يوسف:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

ومهمة المؤذن هو إيصال الخبر للآخرين. فهذا مؤذن يوسف قد أوصل الخبر للعير الذين كانوا لا يعلمون بذلك الخبر إلا بعد أن أذن المؤذن فيهم.

أو كالمؤذن الذي سيؤذن بين أصحاب الجنة وأصحاب النار:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]

فعلى الرغم أن أصحاب الجنة هم من أطلقوا النداء لأصحاب النار، كان طرفا النداء على علم بالمعلومة (وهو ما وجدوا ما وعدهم ربهم). فأصحاب الجنة يعلمون الآن أنهم قد وجدوا ما وعدهم ربهم (أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا)، وكان أصحاب النار يعلمون ذلك أيضا بدليل جوابهم بالإيجاب (قَالُواْ نَعَمۡ).

لكن بعد ذلك جاء الخبر من المؤذن بينهم (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ) على النحو التالي: أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

والنداء كذلك يحتاج أيضا إلى منادي، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾ [ق: 41]

لكن ما يسترعي الانتباه هنا هو ما جاء في آية النداء للصلاة من يوم الجمعة، فدعنا ندقق في الآية الكريمة ذاتها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة: 9-10]

لنجد أن الفعل (نُودِيَ) قد جاء بصيغة المبني للمجهول (كما يصفه النحويون)، ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن نداء الصلاة من يوم الجمعة ليس طلبا يخص المنادي نفسه. فتلبية النداء ليس من أجل المنادي وإنما من أجل الفعل ذاته (وهو الصلاة). لذا، مادام أن الدعوة قد انطلقت للذين آمنوا أن يسعوا إلى ذكر الله، فعليهم أن يلبوا هذا النداء ليس لحاجة تعود فائدتها على المنادي وإنما تلبية للنداء ذاته. وإذا لم يلبي المنادى عليهم هذا النداء، فإنهم لا محالة محاسبون على عدم تلبية النداء، فكما أن ابن نوح محاسبا على عدم تلبية نداء أبيه، فكل من نودي عليه محاسب على عدم تلبية النداء شريطة أن يكون ذلك بالحق. فالنبي محاسب أن يلبي نداء من ينادونه من وراء الحجرات لو أن المنادين قد صبروا حتى يخرج عليهم، فنداءهم عليه من وراء الحجرات في ذلك الوقت بالتحديد هو ما حال دون اجابته ندائهم عليه في الحال. فلو لم يجب النبي الكريم نداءهم عليه في تلك الساعة وبتلك الطريقة، فهو غير محاسب على ذلك. ولو كان نداء نوح ربه بحق ولده نداء مشروعا، لكانت اجابة الله له في الحال. ولو كان نداء أصحاب النار أصحاب الجنة بأن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله نداء مشروعا، لتمت استجابة ندائهم، وهكذا.

نتيجة مفتراة: قد يكون النداء نداء مشروعا (فتتم اجابته في الحال) وقد لا يكون نداء مشروعا (فلا تتم استجابته). وإذا كان نداء مشروعا ولم تتم الاستجابة عليه، فإن المنادي عليه يتحمل المسئولية في ذلك.

السؤال: ماذا نستفيد من ذلك؟

رأينا المفترى: مادام النداء للصلاة من يوم الجمعة هو نداء مشروع، فإن كل من لا يلبي نداء الصلاة من يوم الجمعة من الذين آمنوا مسئول عن عدم الاستجابة، وسيحاسب على ذلك. فاستجابة نداء الصلاة من يوم الجمعة إلزاميا على الذين آمنوا جميعا.

السؤال: ماذا عن الصلوات الأخرى؟

رأينا المفترى: لما لم يأت صريح اللفظ القرآني على صيغة النداء للصلوات الأخرى، فإنه يصبح من باب الآذان، أي الإخبار للسامع بأن وقت الصلاة قد حان، وهو غير ملزم بالحضور إلى المسجد (كما هو ملزم من يوم الجمعة)، فيستطيع (نحن نفتري الظن) بأن يقيم تلك الصلاة في بيته أو في أي مكان آخر. ويصبح القدوم إلى المسجد لإقامة باقي الصلوات غير إلزاميا، محكوما بظروف الشخص واستطاعته على الوصول إلى المسجد. فيصبح ذلك واقعا في باب الاستطاعة.

ولو دققنا في شعيرة الحج، لوجدنا بأن الدعوة إليها قد جاء على شكل آذان:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 27-29]

ومادام أن الدعوة لهذه الشعيرة قد جاءت على نحو آذان، فإن تلبيتها ليست الزامية إذا لم تتوافر الاستطاعة لذلك:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

فالآذان للحج ليست أكثر من دعوة اطلقت لكي تسمعها آذان الناس، ويتطلب الاجابة عليها فقط لمن استطاع إلى ذلك سبيلا.

نتيجة مفتراة: الآذان بمثابة خبر يبثه المؤذن إلى الطرف الآخر (السامع للآذان والمقصود به) ليعلم بالخبر (الرسالة) الموجه له.

عودة على بدء

السؤال: لماذا انطلقت دعوة إبراهيم في الناس بالحج على شكل آذان؟

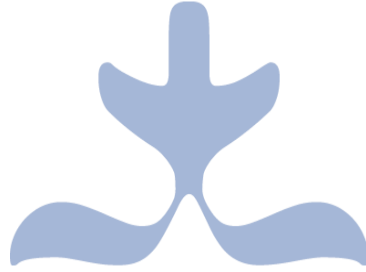
رأينا المفترى من عند أنفسنا: عندما أذن إبراهيم في الناس بالحج، لم يكن الجمهور الموجه لهم الآذن على علم بخبر أن مكان البيت العتيق قد تكشف لإبراهيم. فتناقله الناس آذان إبراهيم خبرا صاعقا مفاده أن مكان البيت العتيق قد تم العثور عليه، وكما هي حال الناس في كل زمان ومكان، ستكون النتيجة أن من كان منهم يهوي فؤاده (مخيلته) إلى ذلك البيت العتيق قد سارع إلى الذهاب إلى هناك للتحقق من الخبر، للاستفادة منه إن كان الخبر صحيحا. وهنا بدأت أفواج الناس (نحن نتخيل) تأتي البيت العتيق رجالا وعلى كل ضامر تأتي نساؤهم إلى هناك.

وبالفعل تجمع حشد كبير من الناس إلى مكان البيت، لأن صورة البيت العتيق كانت على الدوام في أفئدتهم (مخيالهم)، فكانت أملا يتمنون تحققه على أرض الواقع مع تقلب الزمان، وكان إبراهيم هو من تحقق على يديه هوى أفئدة الناس.

تلخيص ما سبق: كان الناس في زمن إبراهيم على اختلاف في مكان البيت العتيق، فاتخذ كل منهم منسكا هم ناسكوه في مكان ما، وكانت عبادة الأصنام هي الشائعة هناك. وما أن أذن إبراهيم بالناس بالحج (أي نشر الخبر) حتى تناقل الناس خبر اكتشاف مكان البيت في زمن إبراهيم، ولما كانت أفئدة (خيالات) بعض الناس حينئذ تهوى ذلك البيت لمكانته الدينية في تراثهم، سارع الكثير منهم للوصول إليه، لإقامة شعائرهم هناك. وبالفعل سكن كثير من هؤلاء هناك عند من أسكنهم إبراهيم من ذريته، وكانت عبادة الله وحده هي التي سادت في زمن إبراهيم وولده إسماعيل. لكن مع تقادم الزمن، وعادة الناس في تحريف العقائد، عادت عبادة الأصنام شيئا فشيئا إلى ذلك المكان، وكان إبراهيم على علم بأن هذا لا محالة سيحدث في قادم الأيام، لذا جاءت دعوته ربه على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ [إبراهيم: 35-36]

وللحديث بقية بإذن الله



جغرافية القرآن

قصة أصحاب الجنة



قصة أصحاب الجنة

سنتعرض في هذه المقالة للحديث عن قصة أصحاب الجنة كما نفهمها من كتاب الله الكريم. سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا من لدنه علمًا لا ينبغي لأحد غيرنا، إنه هو السميع البصير

أما بعد،

وردت قصة أصحاب الجنة في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا
يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[القلم: 17-33]

وسنحاول في هذا البحث طرح مجموعة من التساؤلات حول هذه الآيات الكريمة، ظانين أن في جعبتنا ما قد يكون جديدًا عن هذه القصة العظيمة، مؤكدين في الوقت ذاته أن جميع ما سنقوله بعد هذه السطور لا يعدو أن يكون أكثر من افتراءات هي من عند أنفسنا، نحاول أن نبين من خلالها فهمنا الخاص (ربما المغلوط) لهذه الآيات الكريمة، لكننا نظن في الوقت ذاته أن ما سنقدمه قد يكون مما يستحق أن ينظر فيه كوجهة نظر ربما تسترعي انتباه الكثيرين من المهتمين في البحث عن الحقائق بين مفردات الكتاب الكريم.

التساؤلات الرئيسية

⇐ ما هي تلك الجنة التي يتحدث عنها النص القرآني؟
⇐ من هم أصحاب تلك الجنة؟
⇐ كيف كان ابتلاؤهم؟
⇐ لماذا حصل لهم الابتلاء على تلك الشاكلة؟
⇐ الخ

وسنحاول طرح تساؤلات فرعية بعد التعرض لهذه التساؤلات الرئيسية تباعًا، ولنبدأ بالتساؤل الأول، ألا وهو: ما هي تلك الجنة التي يتحدث عنها النص القرآني في هذا السورة العظيمة، وهي سورة القلم.

افتراء رقم 1 (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن تلك الجنة التي تتحدث عنها هذه الآيات الكريمة هي الطائف (المدينة الأقرب إلى مكة). انتهى.

الدليل

لعل الحديث عن هذه الجنّة يتطلب منا العودة إلى قصة نبي الله إبراهيم التي حاولنا تسطير بعض جوانبها في مقالات سابقة لنا. وقد يكون من المفيد للقارئ الكريم أن يبحث بين سطور مقالاتنا القديمة (كقصة لوط وقصة يوسف) عن تفاصيل تلك القصة العظيمة. ولعلنا بحاجة إلى أن نعيد هنا بعضًا من خيوطها الرئيسية، مركزين على جزئية واحدة في تلك القصة، ألا وهي قرار إبراهيم أن يُسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، ثم طلبه من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى ذلك المكان (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان ربنا واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم). قال تعالى:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وبالفعل أسكن إبراهيم من ذريته (اسماعيل) في ذلك الواد غير ذي الزرع، واستجاب الله لطلبه، فجعل أفئدة من الناس تهوي إلى ذلك المكان. ولكن الملفت للانتباه أن هذا المكان (غير ذي الزرع) كانت تجبى إليه ثمرات كل شيء:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

فكان حرمًا آمن يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقًا من لدن عزيز حكيم. ليكون السؤال الآن هو: من أين كانت تجبى ثمرات كل شيء إلى ذلك الحرم الآمن الذي هوت إليه أفئدة من الناس مع من أسكنهم إبراهيم من ذريته هناك؟

رأينا المفترى: لعل من الواجب أن نتفكر في هذا السؤال على مدى الزمان وتقلب السنين والأيام. فذاك كان حرمًا آمنًا لم تنقص الثمرات التي تجبى إليه مهما كانت ظروف الحال على مدى الزمان. ولعل من المنطق أيضًا أن نتفكر بأن المكان الأقرب القابل للزراعة لذاك الواد (غير ذي الزرع) هو منطقة الطائف. فهي منطقة جغرافية وفيرة الغلة من جميع الثمار، وذلك لتوافر عوامل نجاح الزراعة من التربة والمياه والبيئة الجغرافية (كالمناخ الملائم).

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا أسكن إبراهيم من ذريته في ذلك المكان (الواد غير ذي الزرع)، بدأت وفود الحج إلى بيت الله الحرام (نحن نتخيل) تزداد عامًا بعد عام. فنشأ إسماعيل في مكة (في ذلك الواد)، وكان بلا شك الشخص الأبرز فيها، لكن إسماعيل كان يعلم يقينًا بأن ذلك البيت الحرام (الكعبة) هو ملكية عامة للناس أجمعين. فالله هو من جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس:

- ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97]

فما كان إسماعيل سيدّعي ملكية المكان لنفسه (أو لذريته من بعده)، لكن كان عليه (كأمام من ذرية والده إبراهيم) أن يهتم بأمور الحج

بتأمين المأكل والمشرب للحجيج في كل عام سواء العاكف فيه والباد:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 25-30]

فما كان اسماعيل ليصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد، وهو يعلم عاقبه من يلحد فيه بظلم، لأنها ستكون عذابًا من الله يذقه لمن يفعل ذلك.

السؤال: كيف ذلك؟

افتراء 1: لا ملكية خاصة في مكة (خاصة منطقة الحرم)

افتراء 2: لا صدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام

افتراء 3: يمكن لأي شخص أن يعكف فيه

افتراء 4: يمكن لأي شخص أن يقدم إليه من البادية (أن تكون باد)

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان ذلك الواد غير ذي الزرع الذي فيه البيت الحرام قيامًا للناس، فهو إذاً ملكية عامة للناس أجمعين، ولا يحق لمن يعكف فيه أن يدّعي ملكيته، كما لا يحق لمن يأتي من منطقة البدو أن يدّعي ملكيته.

ويتوجب على كل من يتولى أمر الحجيج هناك أن يوفر لهم الرعاية من المأكل والمسكن والمشرب بالمجان. ليكون السؤال الآن: كيف كان إسماعيل سيوفر ذلك للحجيج؟

رأينا المفترى: لمّا كان إسماعيل (نحن نؤمن) يعلم تمامًا ما يتوجب عليه فعله لمن يقدم إلى تلك المنطقة (غير ذي الزرع)، كان عليه أن يبحث عن منطقة قريبة توفر مصادر الطعام للجميع، فما كان ليجدها (نحن نتخيل) في مكان أفضل ولا أقرب لمكة من الطائف. وهناك (نحن ما زلنا نتخيل) بدأ إسماعيل استغلال عوامل الطبيعة والمناخ لإنشاء أول جنة قريبة من البيت، ليجبي منها ثمرات كل شيء إلى مكة (الواد غير ذي الزرع).

السؤال: كيف فعل إسماعيل ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 54-55]

لوجدنا بأن إسماعيل كان له أهل، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة. ليكون السؤال الرئيس هنا: إذا كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة، فلم كان يأمرهم بالزكاة؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن يقينًا بأن من كان قادرًا على إيتاء الزكاة، فهو شخص مقتدر، ميسور الحال، يملك من المال والطيبات ما يمكن أن ينفق منه، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: 267]

لاحظ - عزيزي القارئ - أن إبراهيم نفسه قد أسكن من ذريته هناك ليقيموا الصلاة:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فما جاء ذكر "إيتاء الزكاة" في دعاء إبراهيم هذا مع إقامة الصلاة. وربما يعزى ذلك إلى أن وجود ذرية إبراهيم في ذلك المكان في بدايتها لم يرافقها توافر في الطيبات ليتم الإنفاق منها. لكن ما أن آل الأمر إلى إسماعيل عندما كبر في العمر وأصبح له أهل حتى كان يأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 54-55]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان أسماعيل (وأهله من بعده) قادرًا (نحن نفتري الظن) على إيتاء الزكاة وذلك لتوافر الكسب والطيبات عندهم.

السؤال: من أين تحصل لإسماعيل (وأهله من بعده) ما يمكن أن ينفق منه كفريضة إيتاء الزكاة؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا سيرة إسماعيل في ذلك المكان، لربما صحّ لنا أن نفتري الظن بأنه ربما عمل بالتجارة، فتحصل له منها الكسب، لينفق منه. كما لا نستبعد احتمالية أنه قد كان ينفق مما أخرج الله من الأرض من الطيبات. مصداقًا لقوله تعالى:

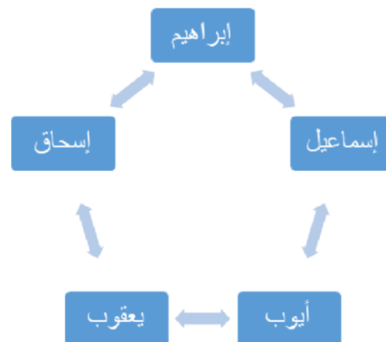
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: 267]

ولكن لمّا كانت أرض مكة واد غير ذي زرع، يمكن أن نفهم أن اسماعيل ربما استغل المنطقة القابلة للزراعة والقريبة من مكة، ألا وهي منطقة الطائف.

لكن يبقى هذا الكلام نظريًا لا دليل حاسم عليه. لذا، نجد من الضروري أن نطرح التساؤل الثاني التالي: من هم أهل إسماعيل الذين كان يأمرهم بالصلاة والزكاة؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا في مقالات سابقة لنا للحديث عن ذرية إبراهيم، فافترينا الظن (من عند أنفسنا) بأنها انقسمت إلى فرعين رئيسيين؛ فكان الفرع الثاني يسكن الأرض التي باركها الله للعالمين، وكانت من نصيب إسحاق (ولد إبراهيم الأصغر)، بينما كانت مكة من نصيب الفرع الأول - إسماعيل (ولد إبراهيم الأكبر).

وزعمنا الظن حيئذ بأن تلك الذرية الطيبة قد تناسلت في خطين متوازيين، فكان لإسحاق ولد هو يعقوب، وكان لإسماعيل ولد هو أيوب على النحو التالي:



وكانت ذرية إسحاق (يعقوب وأولاده) تسكن في الأرض المقدسة، بينما كانت ذرية إسماعيل (أيوب وأولاده) تسكن في مكة. ولما كانا خطا الذرية يسيران بشكل متواز، وجب علينا أن نتخيل بأن أيوب (ولد

إسماعيل) قد كانت له ذرية مشابهة لذرية يعقوب (ولد إسحاق). وما دام أن يعقوب قد تحصل له أثنا عشر من الأبناء (من بينهم يوسف)، فإننا نعتقد بأن أيوب قد تحصل له أحد عشر ولد.

نتيجة مفتراة: كان عدد أولاد يعقوب 12 (يوسف وإخوته)

نتيجة مفتراة: كان عدد أولاد أيوب 11

ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك هو أن يوسف يُعتبر – برأينا - ابن مشترك بين يعقوب (الأب البيولوجي) وأيوب (الأب الاجتماعي). فيعقوب هو من أنجب يوسف (لذا فهو والده وأبوه في الوقت ذاته)، لكن أيوب هو الذي تربى يوسف غلامًا في كنفه حتى اشتد عوده (فكان أبًا ليوسف وليس والدًا له). وليس أدل على ذلك – برأينا- من أن يوسف كان له أبوان (وليس والدان)، وهما الشمس (يعقوب) والقمر (أيوب). قال تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]

وبالفعل تحققت رؤيا يوسف على أرض الواقع، فرفع أبويه على العرش، وخروا له جميعًا سجدًا:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

فتجمع شمل العائلة جميعًا من جديد في أرض مصر تحت لواء يوسف. فكان يوسف هو من ختم ذرية أبيه الأول إبراهيم. فبدأت تلك الذرية بإبراهيم وختمت بيوسف، كما في الشكل التالي:



فتشكلت النجمة السداسية للبيت الإسرائيلي الجديد بهذه الذرية الطيبة. انتهى.

فتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا والتي نحاول جاهدين أن نصل إليها على النحو التالي:
افتراء 1: كان ليعقوب أحد عشر من الأبناء بالإضافة إلى يوسف
افتراء 2: كان لأيوب أحد عشر من الأبناء بالإضافة إلى يوسف
افتراء 3: كان ليوسف أبوان رفعهما معه على العرش
افتراء 4: بدأ البيت الإسرائيلي الجديد بإبراهيم
افتراء 5: انتهى البيت الإسرائيلي الجديد بيوسف

فهذه الذرية الطيبة قد بدأت بإبراهيم، قال تعالى:

- ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [إبراهيم: 40]

وانتهت بهلاك يوسف، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

أصبح البيت الإسرائيلي الجديد يتكون من هؤلاء الأنبياء الستة لبني إسرائيل (وذريتهم من بعدهم). وهم الذين سكنوا جميعًا مصر في زمن يوسف، وخرجوا منها في زمن موسى. بينما كان البيت الإسرائيلي القديم يتكون من كل البشرية التي تناسلت من ذرية إسرائيل الذي هو ولد آدم الأصغر الذي قتل أخاه إدريس الأكبر. فكلنا كنا بني إسرائيل منذ بدء الحياة البشرية على الأرض بعد هبوط آدم من الجنة وتناسلنا من ولده القاتل، لكننا تنازلنا عن هذا النسب العرقي، بينما استمرت ذرية إبراهيم الذين سكنوا مصر زمن يوسف بتلك التسمية (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة خاصة سلسلة مقالات لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلًا من ضيوفه).

ولو تدبرنا ما جاء في كتاب الله بحق نبي الله أيوب، لوجدنا الآيات الكريمة التالية حاضرة على الفور:

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص: 41-44]

إن ما يهمنا طرحه هنا بعد تدبر هذين السياقين القرآنيين هو سؤال واحد: كيف وهب الله لأيوب أهله ومثلهم معهم (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ)؟ من هم أهله ابتداء؟ ومن هم الذين هم مثلهم؟ وكيف كانوا معهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مثلهم هم أبناء يعقوب عندما تجمعوا كلهم معا تحت لواء يوسف في أرض مصر. فلقد حضر يعقوب (نحن نتخيل) وأبناؤه الأحد عشر كما حضر أيوب وأبناؤه الأحد عشر عند يوسف في أرض مصر، فكان هؤلاء مثل هؤلاء. ولو تفقدنا الجداريات المصرية التي تبين لنا مشهد السجود، لوجدنا أن الأحد عشر ولدًا لأيوب يقابلهم أحد عشر ولدًا مثلهم، ففي حين كان أبناء يعقوب في الواجهة، كان أولئك في الظل. (يمكن للقارئ الكريم – إن شاء- أن ينظر جدارية السجود التي قدمناها في واحدة من مقالاتنا السابقة).

فستجد يوسف يتوسطهم ليصبح حلقة الوصل بين الفرع الأول (فرع إسماعيل وابنه أيوب) والفرع الثاني (فرع إسحاق وابنه يعقوب) من سلالة بني إسرائيل الجديدة التي ابتدأت بإبراهيم وختمت بيوسف في حلقة مباركة لازالت تلك النجمة العظيمة تمثلها إلى يومنا هذا.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: عندما حصلت قصة يوسف مع إخوته، كان لابد (كما افترينا في قصة يوسف سابقا) ليعقوب أن يرسل يوسف بعيدًا عن الأرض التي يسكن فيها إخوة يوسف حتى لا يكيدوا له كيدًا، فما كان من الرجل إلا أن جهز الغلام (يوسف) ليرسله مع إخوته ليرتع ويلعب (كما ظنوا)، لكنه كان يعلم أنهم لا محالة طارحوه أرضًا:

- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: 9-10]

فما كانت خطة الإخوة لتخفى على شخص كأبيهم يعقوب. فقد كان يعقوب (نحن نظن) يعلم يقينًا أن على يوسف أن يبتعد عن تلك الأرض ليس خوفًا من كيد أخوة يوسف بأخيهم فقط، ولكن لأن يوسف بحاجة أن يتعلم علمًا لا يملكه يعقوب نفسه. وكان يعقوب يعلم يقينًا (نحن نؤمن) من يملك ذلك العلم، ألا وهو (بمفرداتنا الدارجة) ابن عمه أيوب. ولنقرأ ما قاله يعقوب لابنه يوسف عندما أوّل له رؤياه الأولى:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

فهذا يعقوب يعترف تماما بأن الله – لا محالة- سيعلّم يوسف علم تأويل الأحاديث (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ). فما كان منه إلا أن ينزل ظاهريًا عند رغبة أبنائه بأن يرسل معهم يوسف، وهو يعلم يقينًا أنهم لا يستطيعون أن يقتلوه، ولكنهم – لا محالة- طارحوه أرضًا، تنفيذًا للمشيئة الإلهية (على غير علم منهم) بأن يوسف ذاهب ليتعلم ما لم يكن يستطيع والده يعقوب أن يعلمه إياه، ألا وهو

علم تأويل الأحاديث. فهو مؤمن بأن الله هو من اجتبى يوسف من بين أبنائه جميعًا ليكون هو صاحب هذا العلم العظيم. فيوسف سيتعلم علمًا يرفعه الله به على الجميع (بمن فيهم أبوه نفسه)، لأن يعقوب كان ذا علم (أي صاحب علم واحد)، ألا وهو علم تأويل الرؤيا:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

نتيجة مفتراة: تحصل يوسف على علم تأويل الرؤيا من والده يعقوب الذي كان يملك ذلك العلم

فيوسف إذًا قد تحصل على علم من أبيه يعقوب وهو علم الرؤيا، كما تحصل أيضًا على علم تأويل الأحاديث من أبيه الثاني أيوب.

نتيجة مفتراة 2: تحصل يوسف على علم تأويل الأحاديث من والده أيوب الذي كان يملك ذلك العلم

فأصبح يوسف عليمًا (أي يحوز على أكثر من علم واحد). وهذا ما جاء على لسانه عندما كلمه الملك:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

ولما كان يعقوب ذا علم (واحد)، ولما كان يوسف عليم (أكثر من علم واحد)، كان يوسف أعلى مرتبة من أبيه يعقوب، وذلك لأن الله حسم الأمر عندما قال (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ):

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

فكان يوسف (العليم) أرفع درجة من أبيه يعقوب (ذي العلم) - نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

فكان علم تأويل الرؤيا هو فقط العلم الذي كان يعقوب قد علّمه لجميع أبنائه بمن فيهم يوسف نفسه، لذا، حذّر يعقوب (الأب) ابنه يوسف من أن يقصص رؤياه على إخوته، لعلمه بأنهم جميعًا قادرين على تأويلها. ولو كان أي من إخوة يوسف (أبناء يعقوب) حاضرًا في أرض مصر عندما حصلت الرؤيا للملك، لاستطاع (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يؤولها لهم كما أوّلها يوسف، وذلك لأن هذا العلم كان راسخًا في أهل بيت يعقوب جميعًا. لكن كان ما لا يعلمه يعقوب نفسه، وما لا يعلمه أبناؤه جميعًا (بمن فيهم يوسف حتى الساعة) هو علم تأويل الأحاديث:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

فكان على يعقوب (نحن ما زلنا نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يرسل يوسف إلى من عنده هذا العلم، ألا وهو ابن عمه أيوب. وبالفعل سارت الأمور بالترتيب الإلهي بأن تأتي سيارة لتأخذ يوسف معها بضاعة إلى أرض مصر، وحصل (نحن نتخيل) أن أصاب يوسف المرض والضعف خلال الرحلة، فبعد أن كانت السيارة مستبشرين به يوم أن وجدوه في غيابت الجب:

- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يوسف: 19]

أصبحوا فيه من الزاهدين في مصر، فشروه (أي باعوه بمفرداتنا الدارجة) بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: 20]

وقد افترينا الظن من عند أنفسنا في مقالات سابقة لنا بأن الذي اشتراه من مصر هو رجل من خارج مصر. فالصفقة تمت في أرض مصر (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ)، لكن الذي اشتراه كان من غير أهل مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

فعبارة (مِن مِّصْرَ) هي شبه جملة وصفية لفعل الشراء (أي الشراء تم في مصر)، ولا تصف المشتري (فالمشتري ليس من مصر). وليس أدل على ذلك من قول يوسف لصاحبيه السجن:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف: 37]

فقد عاش يوسف فترة طويلة من الزمن بين قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قبل قدومه إلى مصر. وهي الأرض الأولى التي حصل ليوسف فيها التمكين الأول:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

ثم حصل السجن ليوسف في أرض مصر، وما مكّن له في أرض مصر إلا بعد تعبيره رؤيا الملك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: 56]

نتيجة مفتراة: حصل التمكين ليوسف في الأرض مرتين

نتيجة مفتراة: كان التمكين الأول في أرض قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة مفتراة: كان التمكين الثاني ليوسف في أرض مصر:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: 56]

السؤال الأول: ما هي تلك الأرض التي حصل ليوسف التمكين فيها في المرة الأولى؟

السؤال الثاني: من هو ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر؟

رأينا المفترى 1: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن التمكين الأول ليوسف كان في مكة (الواد غير ذي الزرع).

رأينا المفترى 2: لقد افترينا الظن سابقا (وما زلنا) بأن ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر كان ابن عم يعقوب، ألا وهو نبي الله أيوب. وهناك في بيت ذلك الرجل مكّن الله ليوسف في تلك الأرض، وتعلم يوسف تأويل الأحاديث. انظر الآيات السابقة عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة مفتراة 1: مكن الله ليوسف في تلك الأرض، فأصبح فيها ذو شأن عظيم

نتيجة مفتراة 2: تعلم يوسف علم تأويل الأحاديث في بيت ذلك الرجل على يدي ذلك الرجل

تساؤلات

- ⇐ أين الدليل على أن الأرض التي حصل ليوسف فيها التمكين الأول كانت مكة؟
- ⇐ أين الدليل على أن الذي اشترى يوسف من مصر هو نبي الله أيوب؟
- ⇐ ما هو علم تأويل الأحاديث الذي تعلمه يوسف على يدي ذلك الرجل؟
- ⇐ كيف عاش يوسف في تلك الأرض؟
- ⇐ لماذا انتقل يوسف من تلك الأرض إلى مصر؟
- ⇐ الخ

دعنا نبدأ النقاش في هذه القضايا بالافتراء الخطير جدًا التالي: لما كان أيوب هو من علم يوسف علم تأويل الأحاديث، كان هو من يملك علم العرش. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا السؤال، علينا أن نطرح سؤلًا آخر ألا وهو: من أين حصل يوسف على العرش عندما كان في مصر؟

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

ألم يخرج يوسف من بيت أبيه يعقوب غلاما؟ هل خرج من هناك ومعه ذلك العرش الذي رفع أبويه عليه في نهاية القصة؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد جازمين بأن يوسف لم يخرج من بيت أبيه يعقوب غلامًا يحمل معه ذلك العرش، وجلّ ما كان يحمله يوسف معه حينئذ هو جزء من ميراث النبوة الذي كان متوافرًا عند والده يعقوب، ألا وهو قميص النبوة (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف).

ليكون السؤال المحوري الآن هو: من أين تحصل ليوسف علم العرش؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن علم العرش (أو لنقل علم تأويل الأحاديث) هو الجزء الآخر من ميراث النبوة لبيت إبراهيم الكبير. فهذا البيت كان فيه الكتاب والملك، قال تعالى:

- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]

فكان ذلك من نصيب بني إسرائيل جميعًا (بشقيهم: فرع إسحاق وفرع إسماعيل).

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: 16]

وقد كان الملك العظيم يتمثل (نحن نظن) بالقميص والعصا، وكان ذلك من نصيب إسحاق وذريته. وكان الكتاب والحكمة من نصيب إسماعيل وذريته، وتجمع كل ذلك مرة أخرى بيد يوسف في أرض مصر، فكان له الكتاب والحكمة والملك العظيم.

السؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن إبراهيم عندما اتخذ قراره بأن يفصل بين ولديه إسماعيل وإسحاق، ترك إسحاق الصغير في الأرض المباركة للعالمين، وأودع عنده ميراث الحكم والملك (القميص والعصا)، وأسكن إسماعيل في واد غير ذي زرع عند بيت الله الذي جعله حرمًا آمنًا، فأودع عنده الكتاب والحكمة.

السؤال: ما هو علم الكتاب والحكمة؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، لربما استطعنا أن نتخيل مقدار العلم الموجود في ذلك الكتاب، قال تعالى:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]

إذا كان من عنده علم من الكتاب (جزء من علم الكتاب) قد استطاع أن يجلب العرش لسليمان قبل أن يرتد إليه طرفه، فما بالك بمن كان عنده الكتاب كله؟ فهل تستطيع أن تتخيل عزيزي القارئ – إن شئت طبعًا- ما يستطيع أن يفعله من كان عنده علم الكتاب كله؟ من يدري!!

نعم، لقد كان أيوب (ولد إسماعيل) يملك ذلك الكتاب، ومنه تعلم يوسف علم تأويل الأحاديث، وكانت الوسيلة في ذلك هو العرش (لمعرفة رأينا بما هو العرش ندعوك عزيزي القارئ الكريم – إن شئت- أن تطلع على مقالتنا تحت عنوان: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته – باب العرش).

إن ما يهمنا طرحة هنا هو أنه مادام يوسف هو من ختم حلقة ذلك البيت الإبراهيمي (بيت بني إسرائيل الجديد)، فقد حاز من جديد على كل ميراث النبوة الذي قسمه أبوه إبراهيم مناصفة بين ولديه إسحاق وإسماعيل عندما باعد بينهما.

السؤال: كيف كان أيوب هو من أشترى يوسف من مصر؟

رأينا المفترى: لما كان الكتاب في حيازة أيوب، كان هو من يعلم علم تأويل الأحاديث، فكان مطلعًا على مجريات الأمور عن كثب في كل ما كان يحصل في الشق الآخر من بيت بني إسرائيل الجديد (في الأرض المباركة)، فقد كان هذا النبي الكريم يتابع مجريات ما يحصل في بيت يعقوب، وكان يرى بأم عينه (بالعرش الذي عنده) ما بدر من أبناء يعقوب تجاه أخيهم يوسف الذي آثره الله عليهم جميعًا. وما أن خرج يوسف في تلك الرحلة من الأرض المباركة إلى أرض مصر حتى انطلق الرجل ليحضره من أرض مصر. فالعرش هو ما

يطلعك على ما يحصل من مجريات الأمور حتى لو كانت بعيدة عنك، وليس أدل على ذلك مما كان يعلمه يوسف من مجريات الأمور خارج أسوار السجن حتى وهو حبيس فيه، قال تعالى على لسان يوسف:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف: 37]

فيوسف يعلم ما يحصل خارج أسوار السجن، ونحن نفتري الظن بأن ذلك كان متوافرا له بسبب علم تأويل الأحاديث الذي يتحقق بوجود العرش.

ولو دققنا فيما كانت تملك تلك المرأة في سبأ، لوجدنا أنها كانت تعلم ما يجري من أحداث عند سليمان قبل أن يأتي الهدد سليمان بخبرها، قال تعالى:

- ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: 34]

فالمرأة كانت تعلم ما يفعل سليمان وجنوده إذا ما دخلوا قرية في الوقت الذي لم يكن سليمان يعلم خبرها، ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن وسيلتها في ذلك هو امتلاكها للعرش العظيم:

- ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: 23]

(للتفصيل حول مفردة العرش، انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان قصة يوسف و ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: العرش (أو علم تأويل الأحاديث) يمكنك من الاطلاع على ما يجري من أحداث حتى لو كانت بعيدة عنك مكانيًا. انتهى.

عودة على بدء

كانت حكمة الله قد قضت بأن يصيب يوسف التعب والضعف من تلك الرحلة الطويلة من البدو في الأرض المباركة إلى مصر، وما أن وصل يوسف (الغلام) إلى سوق مصر حتى كانت السيارة فيه من الزاهدين، وما كان الغلام ليكون بضاعة ذات قيمة في عيون من حضر السوق حينئذ، فجاء أيوب المتابع لتحركات يوسف من خلال العرش، واشترى الغلام بدراهم معدودة، لأن السيارة كانوا فيه من الزاهدين. فاصطحب الغلام (نحن لا زلنا نتخيل) معه، وقفل عائدًا إلى بيته خارج أرض مصر، وهناك طلب من امرأته أن تكرم مثواه لسببين هما:

⇐ عسى أن ينفعهما، أو
⇐ أن يتخذاه ولدًا

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن لهذا الغلام أن ينفع ذلك الرجل وامرأته؟ ولماذا كان من الممكن (عَسَى) أن يتخذاه ولدًا؟

رأينا المفترى: إن أول ما يمكن أن نفتريه في هذا الصدد هو أن العلاقة بين هذا الرجل وامرأته تلك لم تكن بأحسن حال، بدليل أن الخطاب القرآني قد وصفها على أنها امرأته وليس زوجته. فامرأة الرجل هي من كان بينها وبين بعلها علاقة غير سوية تشوبها المشاكل العائلية (للتفصيل حول هذه القضية انظر مقالاتنا السابقة في ثلاثية المرأة وقصة خلق عيسى). وليس أدل على ذلك – برأينا- من أن الوصف ذاته (عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) قد جاء في وصف العلاقة بين فرعون وامرأته عندما جاءهما موسى غلامًا صغيرًا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

(للتفصيل حول هذه القضية نحيل القارئ الكريم – إن شاء – إلى مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى).

السؤال: ما الذي سبب سوء العلاقة بين هذا الرجل وامرأته؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن امرأة هذا الرجل لم تكن توافق بعلها أيوب على كل ما كان يفعل. فالرجل (نحن نتخيل) كان (كـ نبي) يقوم بواجبات كثيرة يظن أنها واجبة عليه شرعًا، لكن امرأته كانت لا توافقه على كل تلك الأفعال ربما لغريزة بشرية انثوية في نفسها، فقد كانت (نحن نتخيل) تفضل أن تظفر بنصيب الأسد من الخير الذي كان عند بعلها، في حين كان هو ينفق كثيرًا من هذا الخير على الناس كواجب ديني. فسبب ذلك (نحن نتخيل) حالة من عدم الانسجام التام بين المرأة وبعلها حينئذ. ولا ننسى أن أيوب قد طلب منها أن تكرم مثوى الغلام ليس فقط ليصلح العلاقة المتشنجة بينها وبعلها، ولكن أيضا ليتخذاه ولدًا. فعدم وجود الذرية قد يسبب نوعا من تشنج العلاقة بين الرجل وامرأته ولو بعد حين. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: لما كان أيوب هو وريث اسماعيل الشرعي والوحيد، كان عليه أن يقوم بواجبه الديني تجاه الحجيج القادمون في كل عام إلى بيت الله الحرام، فكان ينفق كثيرًا من الطيبات التي كانت وافرة عنده في رفادة حجاج بيت الله الحرام.

السؤال: من أين كان يتأتى لذلك النبي الكريم كل تلك الطيبات؟ كيف كان يستطيع أن يتكفل برفادة جميع الحجاج إلى بيت الله الحرام في كل عام؟ ما مقدار الثروة التي كانت بين يده حينئذ؟ وما هي مصادر تلك الثروة التي لابد أنها كانت (نحن نتخيل) كبيرة جدًا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن تلك الطيبات التي كانت تجبى إلى الحرم الآمن هي من طيبات ما أخرج الله في تلك الجنة القريبة من مكة (الطائف). وهي الأرض التي استغلها والده إسماعيل، فأصبحت جنة، فكانت خيراتها (طيباتها) تنفق على المساكين في الواد غير ذي الزرع، على العاكف فيه والباد.

الدليل

لنعد الآن بهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا إلى قصة الجنة تلك وما حلّ بها من عذاب عندما أقسم أصحابها ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون، ثم نرى ما ستؤل إليه النتائج في نهاية البحث بإذن الله وتوفيق منه.

قال تعالى:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾
فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا
يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾
[القلم: 17-33]

دقق عزيزي القارئ الآن - إن شئت - في هذه الآيات الكريمة. لنطرح حولها جملة من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات تشفي ظمأ المتعطش للعلم الذي انطوت عليه، نذكر منها:

- لماذا جاء تفصيل قصة هذه الجنة وما حل بها في كتاب الله؟ فهل كانت هي الجنة الوحيدة التي حلّ بها العذاب الإلهي؟ هل كل من أقسم ليصرمن جنته ويمنع عنها المساكين يحلّ بها ما حل بهذه الجنة؟ الخ.
- كيف كان ذلك ابتلاء؟
- من هم أصحاب تلك الجنة؟ وما الذي يميزهم عن أصحاب الجنات الأخرى؟ وما خصوصية أن يحل بهم هم على وجه التحديد العذاب؟ ولماذا ابتلاهم الله على ذلك النحو؟
- لماذا أقسموا (قسمًا) ليصرمنها مصبحين؟ فهل كانوا سيجنون ثمار تلك الجنة كلها بتلك السرعة قبل أن يدخلها عليهم المساكين؟ فكم من الوقت استغرقهم ليحصلوا على ثمرها قبل أن يحضر المساكين؟ وبكلمات بسيطة: كم كان حجم تلك الجنة؟ هل كانت جنة صغيرة الحجم أم جنة كبيرة الحجم؟
- لماذا أقسموا أن لا يستثنون؟
- كيف غدو على حرثهم؟ وكيف كانوا صارمين؟
- كيف طاف عليها طائف من ربك؟ ولماذا كان ذلك طائف وليس عذابًا من نوع آخر؟ وما هو الطائف الذي طاف عليها من ربك؟

- ⇐ كيف أصبحت كالصريم؟ وما هو الصريم أصلًا؟
- ⇐ كيف غدو على حرد قاردرين؟ وما هو الحرد أصلًا؟ وكيف (ومتى) تكون على الحرد قادرًا؟
- ⇐ كيف انطلقوا وهم يتخافتون؟ ولماذا كانوا يتخافتون؟
- ⇐ لماذا عندما رأوها قالوا بأنهم ضالون؟
- ⇐ لماذا وصفوا أنفسهم بعد ذلك أنهم محرومون؟
- ⇐ لماذا أخذوا جميعًا بعد ذلك يتلاومون؟
- ⇐ لماذا انبرى أوسطهم على وجه التحديد ليلومهم على فعلتهم؟ ومن هو أوسطهم ذاك؟ ولماذا لامهم على عدم تسبيحهم؟ ولماذا كانوا من قبل لا يسبحون؟ وما علاقة عدم تسبيحهم بما حلّ بجنتهم من العذاب؟
- ⇐ لماذا اعترفوا بذنبهم وأقروا بأنهم كانوا طاغين؟ فكيف كان طغيانهم من قبل هذا؟
- ⇐ لماذا عادوا ليدعو ربهم أن يبدلهم خيرًا منها؟ وكيف أصبحوا إلى ربهم راغبين؟ وهل فعلًا أبدلهم ربهم خيرًا منها؟
- ⇐ ولماذا انتهت القصة بوصف العذاب في الدنيا على تلك الشاكلة؟ ولماذا بينت أن عذاب الآخرة هو أكبر؟ وما علاقة هذا كله بالعلم؟
- ⇐ الخ

سنحاول فيما تبقى من هذه المقالة تسطير افراءتنا حول هذه القصة العظيمة في كتاب الله، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزدنا علما، ونعوذ به وحده أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

إن أبسط الاستنباطات التي يمكن أن ننطلق بالنقاش منها هنا هو الظن بأن أصحاب الجنة هم مجموعة من الأشخاص، ينتمون إلى عائلة واحدة بدليل ملكيتهم لجنة واحدة، وأن عددهم فردي بدليل وجود أوسطهم، فالأوسط بين المجموعة هو الذي يقسم المجموعة الواحدة إلى قسمين متساويين يكون هو الحد الفاصل بينهما. لذا سنتجرأ على الظن بأن عددهم كان أحد عشر شخصًا، وكان أوسطهم هو صاحب الرقم (6). فتكون هناك مجموعتان كل مجموعة تتكون من خمسة أشخاص على النحو التالي:



وهؤلاء هم – برأينا – أبناء نبي الله أيوب. وقد كان أيوب (كما كان يعقوب) متزوجًا (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بثلاثة من النساء، أنجبت أحداهما خمسة من الأبناء، وأنجبت أخرى خمسة من الأبناء، وأنجبت الأخرى ولدًا واحدًا. فكان هذا الولد هو الأوسط بينهما، لأنه لم يكن (نحن نرى) لينحاز إلى فئة على حساب فئة أخرى، فهو يشبه إلى حد كبير الأخ الآخر ليوسف الذي كان يحبه يعقوب بالإضافة إلى يوسف يوم أن وصف الإخوة حب أبيهما ليوسف وأخيه:

- ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: 8]

ولما لم يكن لأيوب من الأبناء ولدًا آخر كيوسف، كان هذا الولد (أوسطهم) من بينهم جميعا هو الأقرب لأبيه، لأنه كان الحلقة الأضعف بين الأبناء. فكان بمثابة العقل الأكثر اتزانًا بين إخوته جميعًا.

ولا يجب أن ننسى كذلك أن الوسط هو الذي يمثل نقطة الإلتقاء والحل بين طرفين متنافرين متباعدين. فأنت عندما تكون وسيطًا في خصام، فإنك تحاول تقريب وجهات النظر بين الطرفين المتخاصمين. ولما كنا نحن أمة وسطًا، كنا نحن الشهداء على الناس:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: 143]

فوسطية هذه الأمة وشهادتها على الناس تتمثل بامتلاكها المعلومة الصحيحة، بدليل أننا أهل القرآن الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: 76]

فعندما يختلف بنو إسرائيل في شيء، يأتي دورنا كأمة تحمل رسالة هذا القرآن لتقص عليهم نبأ الذي هم فيه مختلفون.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الوسط هو الذي يتخذ موقف المصالحة بين طرفين متخاصمين، فيكون صوته هو صوت العقل والحكمة.

لذا، نحن نفتري الظن بأن أوسط أصحاب الجنة، كان هو صوت العقل الذي كان على الدوام يدعوهم جميعًا إلى أن يسبحون. لكنهم لم يكونوا ليحملوا قوله لهم محمل الجد، فما كانوا مسبحين.

السؤال: لماذا لم يكونوا مسبحين؟ ولماذا جاء عذابهم على تلك الشاكلة لأنهم لم يكونوا مسبحين؟ فما علاقة عدم التسبيح بوقوع العذاب؟ وهل يكفّ التسبيح وقوع العذاب؟

رأينا المفترى: انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني الذي يصف قصة أصحاب الجنة من هذا المنظور مرة أخرى، وركز على قول هذا الذي هو أوسطهم كيف يصف سبب ما حلّ بجنتهم:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: 17-33]

إن أبسط ما يمكن أن نفهمه من قول أوسطهم أنه كان يطلب منهم أن يسبحون، لكنهم لم يكونوا مسبحين، بل كانوا ظالمين:

- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: 28-29]

التساؤلات مرة أخرى: لماذا كان يطلب منهم أوسطهم من قبل أن يسبحون؟ ولماذا لم يكونوا يسبحون؟ وما علاقة عدم تسبيحهم بما حلّ بجنتهم؟

رأينا المفترى: إن أول ما يجب أن نبحث فيه هو معنى التسبيح. لنطرح السؤال المباشر التالي: ما هو التسبيح؟ وكيف يمكن أن تكون أنت (أو أكون أنا) من المسبحين؟ ومتى يمكن أن لا تكون أنت (أو لا أكون أنا من المسبحين)؟

رأينا المفترى: إن أول ما يمكن أن نطرحه هنا عن التسبيح هو الافتراء الخطير جدا التالي: التسبيح سبيل النجاة من العذاب. انتهى.

الدليل

يمكن لنا أن نتخيل حجم الكارثة التي حلّت بيونس وهو في بطن الحوت، ونستطيع أن نتخيل مقدار صعوبة الخروج منها حينئذ، لكن كان تسبيحه في سابق الأيام هو الذي نجّاه من ذلك المأزق بالرغم من شدته، قال تعالى:

- ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 142-144]

ولو دققنا في النص القرآني جيدًا، لوجدنا أن الذي لا يسبح هو مستكبر:

- ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: 38]

فتكون النتيجة المفتراة هنا هي على النحو التالي: إما أن تسبح بحمد ربك فتكون من الناجين فلا يصيبك عذاب منه، أو تكون من المتسكبرين فيحل بك العذاب غير مأسوفًا عليك.

(دعاء: اللهم أنت ربي، لا شريك لك، أدعوك وحدك أن أكون من المسبحين من عبادك - إنك أنت السميع البصير).

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]

لوجدنا على الفور أن التسبيح منفصل عن عبادة الله كما أنه ليس السجود. فهناك عبادة (عِبَادَتِهِۦ)، وهناك تسبيح (وَيُسَبِّحُونَهُۥ) وهناك سجود (وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ). وإن كانت كلها خالصة لله وحده.

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الشورى: 5]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]

لوجدنا بأن التسبيح شيء مختلف عن الاستغفار وعن الصلاة.

والتسبيح فعل تقوم به الملائكة:

- ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر: 75]

فحتى الذين يحملون العرش (ومن حوله) لا ينقطع تسبيحهم بحمد ربهم:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]

والآية الكريمة ذاتها ترشدنا إلى أن التسبيح يختلف عن الإيمان الاستغفار للآخرين (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟).

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن تسبيح ما في السموات والأرض ومن عند الله غير منقطع، فهو مستمر بالليل كما في النهار:

- ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: 19-20]
- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

ونجد كذلك الرعد يسبح بحمد ربه:

- ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: 13]

وكذلك الجبال والطير:

- ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79]
- ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: 17-19]
- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24]
- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: 1]
- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: 1]

وقد لا نفقه تسبيح هذه المخلوقات:

- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: 44]

لكن السؤال المباشر الآن هو: هل نستطيع نحن أن نكون نحن دائمي التسبيح بلا انقطاع؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أنه مطلوب منا أن نسبح بحمد ربنا في أوقات معينة، قال تعالى

- ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]
- ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر: 55]
- ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ [ق: 39-40]
- ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطور: 48-49]
- ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: 1-3]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لربما حق لنا أن نفتري القول بأن التسبيح يمكن أن تقوم به في أي وقت من الليل أو النهار. ولو دققنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان: 58]
- ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ [الحجر: 98]

لوجدنا أن التسبيح له علاقة بارتكاب الذنوب، كما أنه مرتبط ارتباطًا مباشرًا بالسجود.

السؤال: ما فائدة التسبيح؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد جازمين بأن التسبيح هو الذي يدفع العذاب الإلهي عن الناس. فالذي يكون من المسبحين، لا يمكن أن يقع عليه العذاب من الله، كما أنه سيجد الله معه عندما يحتاجه في وقت الشدة (إن هو وقع بها) كما حصل مع ذي النون مثلًا. فالذي أنقذ ذا النون من أن يلبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون هو أنه كان من قبل من المسبحين:

- ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: 142-144]

السؤال: أين يمكن أن يحصل التسبيح؟

راينا المفترى: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآية الكريمة:

- ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النور: 36]

لتجد أن البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه هي مكان مثالي ليقع فيها التسبيح بالغدو والآصال

ولا شك عندنا أن التسبيح يحمل معنى نفي الإشراك بالله، فلا آلهة أخرى مع الله:

- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22]
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83]

ويكون التسبيح دائما باسم ربنا العظيم:

- ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة: 74]
- ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ [الواقعة: 96]
- ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾ [الحاقة: 52]

ولو دققنا في رد أصحاب الجنة على قول أوسطهم، لوجدناهم على الفور يقولون بملء الفيه:

- ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾ [القلم: 28-29]

ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين المسبح والظالم؟

رأينا المفترى: لو جلبنا جميع الآيات الكريمة التي ترد فيه مفردة "سبحان"، لوجدناها كلها تفرد الأمر كله لله، فلا تجعل معه شريكًا. قال تعالى:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]
- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]
- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]
- ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: 31]
- ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10]
- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: 18]
- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: 68]
- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: 108]
- ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ [النحل: 1]
- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل: 57]
- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]
- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣﴾ [الإسراء: 43]
- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]
- ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾ [الإسراء: 108]
- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: 35]
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22]
- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]
- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 91]
- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]
- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ [الفرقان: 18]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾ [النمل: 8]
- ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68]
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾ [الروم: 40]
- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ: 41]
- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: 36]
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83]
- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾ [الصافات: 159]
- ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات: 180]
- ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزمر: 4]
- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]
- ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزخرف: 13]
- ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢﴾ [الزخرف: 82]
- ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٣﴾ [الطور: 43]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر: 23]
- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾ [القلم: 29]

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أبسط معاني التسبيح هو إفراد الفضل في كل شيء لله (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)، فلا تتخذ معه شريكًا من دونه (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ). فكل من أشرك مع الله من دونه في شيء، فهو إذا ليس من المسبحين. فالله هو الذي خلقنا، وهو الذي رزقنا، وهو الذي يميتنا ثم يحيينا، ولا يستطيع من أشركوهم مع الله أن يفعل من ذلكم من شي:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: 40]

لذا، فهو وحده مستحق التسبيح، وهو وحده من يستحق أن نقر له بذلك. انتهى.

لنعد بهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا إلى قصة أصحاب الجنة. فلقد كان أوسطهم يحثهم على أن يسبحون، فينسبوا فضل كل ما عندهم من الطيبات هو من فضل الله وحده، فما كانوا يفعلون. ولكن كان يظنون (نحن نتخيل) أن ما عندهم من الرزق ليس من الله وحده، بل ربما نسبوا الفضل في ذلك إلى من هم من دون الله (كأنفسهم مثلًا)، فما كانوا إذاً من المسبحين. وهذا ما لامهم أوسطهم عليه:

- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: 28-29]

وعندما أدركوا سوء ما فعلوا، ما كان منهم إلا أن يعودوا إلى رشدهم، ليدركوا أن التسبيح هو وحدة الكفيل برفع العذاب عنهم، لا بل وإبدالهم خيرًا من جنتهم. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في تتمة السياق القرأني ذاته:

- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: 28-32]

ولو تدبرنا هذا النص جيدًا، لوجدنا بأن بعضهم قد أقبل على بعضهم الآخر يتلاومون. ليكون السؤال هو: لماذا كانوا يتلاومون؟

رأينا المفترى: لو بحثنا عن مفردة "يتلاومون" ومشتقاتها في النص القرآني، لوجدنا السياق التالي على الفور:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22]

ولوجدنا على الفور أن الملاومة تحدث بعد نفاذ الحيلة، أي "بعد ما يقع الفاس بالراس" (كما يقول المثل الشعبي). فما فائدة التلاوم وهم فيها يصطرخون. إن ما يهمنا قوله هنا أن أصحاب النار قد حاولوا إلقاءاللائمة على الشيطان، فحاولوا أن يلوموه لأنهم ربما اعتقدوا أنه هو من أوقعهم في هذا المصير المهلك،

لكن الشيطان وإن لم ينفي ضلوعه في ذلك، لكنه دافع عن نفسه بالقول بأن جل ما فعله هو أنه قد دعاهم فاستجابوا له ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. فلا داع أن يلوموه وليلموا أنفسهم ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

ولو حاولنا فهمنا مفردة اللوم، لربما صح لنا أن نقدم الافتراءات التالية:

- اللوم يكون في حالة وجود ما هو سوء
- اللوم يجب أن يكون تبادليا بين طرفين
- اللوم يتحمل فيه كلا الطرفين جزءًا من المسئولية
- اللوم لا يمكن أن تقع المسئولية عند حصوله على طرف واحد
- اللوم يكون فيه الطرف الأول مرسل والطرف الآخر مستقبل
- اللوم يكون فيه الطرف الأول داعيًا للسوء
- اللوم يكون في الطرف الثاني متقبلة نفسه لدعوة الطرف الأول
- اللوم يحصل بعد فوات الأوان
- الخ

ولو حاولنا إسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة:

- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 28-30]

لوجدنا بأن بعضهم قد لام بعضهم الآخر ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾، ربما لنفهم من ذلك بأن بعضهم هو من كان محرك الفعل كله (كالشيطان الذي دعى من اتبعه)، لكنه لا يتحمل وحده وزر ذلك كله، لأنه ببساطة قد دعاهم فستجابوا له. ولو لم يكونوا متقبلين راغبين فيما دعاهم إليه، لما وافقوه على ما دعاهم إليه. فهناك إذا محرضّ على السوء، وهناك متقبل لتلك الدعوة، فلا يوجد هناك بريء يستطيع أن يظن بأنه لا يد له في ذلك، بل هم جميعًا شركاء فيما آلت إليه الأمور.

تلخيص ما سبق

كان بعض أصحاب الجنة قد أطلق/أطلقوا الدعوة بين إخوته بأن يصرموا جنتهم فلا يدخلوا عليها فيها المساكين، ووجد أن دعوته هذه قد لاقت آذانًا صاغية عند البعض الآخر، فتقبلوها جميعًا باستثناء أحدهم وهو أوسطهم الذي كان يحثهم على التسبيح، لكن كان صوت شيطان الإنس (حينئذ) فيهم عاليًا، وكانت أنفسهم الأمارة بالسوء طاغية، فقرروا أن يقوموا بهذه الفعلة. وعندما وجدوا عاقبة سوء ما صنعوا، بدأوا يتلاومون، لكن لم يستطيع أحد منهم أن يتملص من المسئولية، فكانوا جميعًا ملومين.

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: 29]

لوجدنا أن الله قد طلب منا جميعًا الاعتدال في الإنفاق، فلا يجب أن نجعل يدنا مغلولة إلى أعناقنا ولا يجب أن نبسطها كل البسط، لأن النتيجة ستكون على نحو أن نقعد ملومين محسورين (فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا). فتكون هناك ملامة (مَلُومًا) وتكون هناك حسرة (مَّحۡسُورًا). ولو دققنا في الآية الكريمة أكثر، لربما جاز لنا أن نقسمها إلى قسمين على النحو التالي:

- وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...
- وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ...

ليكون السؤال هو: لماذا هذه التجزئة؟ ما فائدة تدبر الآية الكريمة على هذا النحو؟

رأينا المفترى: لو دققنا في عاقبة ذلك، لوجدنها على نحو حصول نتيجتين اثنتين: ملومًا محسورًا. ليكون الافتراء الذي نحاول أن نجهد للوصول إليه هو على النحو التالي:

افتراء 1: من جعل يده مغلولة إلى عنقه ستكون النتيجة على نحو أن يكون ملومًا

افتراء 2: من بسط يده كل البسط ستكون النتيجة على نحو أن يكون محسورًا.

فتصبح الصورة على النحو التالي:

- وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ... فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا
- وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ... فَتَقۡعُدَ ... مَّحۡسُورًا

فالذي يجعل يده مغلولة إلى عنقه سيقع عليه فعل اللوم، لأن ذلك يمكن أن يكون سببًا في هلاك كل ما يملك، وستكون نفسه من الأنفس الشح:

- ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن: 15-17]

والذي يبسط يده كل البسط، ستأتي – لا محالة- اللحظة التي سيتحسر فيها على ما كان بعد نفاذه.

ولو حاولنا اسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة، لوجدنا أنهم كانوا يتلاومون، وذلك لأنهم غلوا أيديهم إلى أعناقهم، وقرروا أن لا يدخلنّها اليوم عليهم مسكين، ولا يستثنون. وانظر – عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني كله عن أصحاب الجنة مرة أخرى:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾
فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا
يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾
[القلم: 17-33]

تلخيص ما سبق: كان أصحاب الجنة يملكون من الطيبات الكثير، لكنهم كانوا ممن جعلوا أيديهم مغلوة إلى أعناقهم، فقرروا أن لا ينفقوا منها شيئا للمساكين، وكان سبب ذلك أنهم لم يكونوا من المسبحين، فما نسبوا الفضل في كل الخيرات التي بين أيديهم لله وحده، وربما ظنوا أن من حقهم التصرف فيما يملكون كيفما يشاءون. وقد كان بعضهم هو المحرك لهذا الفعل، فأطلق دعوته للآخرين، فتقبلوا تلك الدعوة وذلك لأن نفوسهم كانت أيضًا راغبة في ذلك، وكان يستثنى من بينهم جميعًا أوسطهم الذي كان يحثهم من قبل على أن يكونوا من المسبحين، فما وجد قوله لهم صدى في أنفس إخوته التي كانت من الأنفس الشح. فكانت النتيجة أن يحصل السوء الذي لا شك سيجعل بعضهم يقبل على بعضهم الآخر، فيتلاومون.

ولو تدبرنا السياق أكثر، لوجدنا أن عذابهم كان ابتلاء، فجاءت الآية الأولى التي تصور حالهم على هذا النحو:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم: 17]

ليكون السؤال الأول هنا هو: لماذا كان ذلك ابتلاء؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: 155]

لوجدنا على الفور أن البلاء يكون بشيء من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. أليس كذلك؟ ولو حاولنا إسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة، لوجدنا أن مشكلتهم الأساسية تتمثل في نقص الثمرات، ذهاب جنتهم حتى أصبحت كالصريم، أليس ذلك؟

فبلاء إبراهيم - مثلًا - كان بنقص الأنفس (ذبح ابنه):

- ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: 103-106]

وكذلك كان بلاء بني إسرائيل تحت حكم فرعون:

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]

نتيجة مفتراة: كان بلاء أصحاب الجنة هو نقص الثمرات فقط، أي ذهاب جنتهم بأكملها حتى أصبحت كالصريم:

- ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 19-20]

السؤال: كيف أصبحت كالصريم؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق ذاته، لوجدنا بأن أصحاب الجنة قد أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون. انظر الآيات السابقة في سياقها الأوسع:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 17-20]

ليكون السؤال الآن هو: كيف كانوا سيصرمونها مصبحين؟

رأينا المفترى: ربما ظن العامة من الناس، مدفوعين بتأويلات أهل الدراية من قبلنا، بأن أصحاب الجنة قد عزموا على جني ثمار جنتهم قبل أن يصل إليهم المساكين في صبيحة ذلك اليوم. وهذا الظن نرفضه جملةً وتفصيلًا، لأن هذا يعني أن جنتهم كانت جنة صغيرة الحجم ربما لا تنبت إلا نوعًا واحدًا من الثمار قد حان موعد قطافه في يوم من الأيام. لكننا نفتري الظن من عند أنفسنا بأن جنتهم كانت كبيرة جدًا في الحجم، وفيها من كل الثمرات التي لا يمكن أن تؤتي أكلها جميعًا في يوم واحد بعينه. فما الذي خطط له أصحاب الجنة أن يفعلوه في صبيحة يوم واحد قبل أن يدخلها عليهم المساكين؟

رأينا المفترى: دقق عزيزي القارئ في السياق القرآني كله الذي يصف قصة أصحاب تلك الجنة، لتجد بأنهم كانوا عازمين على منع المساكين من دخول جنتهم:

- ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: 23-24]

لذا، علينا أن نفكر بهذه القصة على نحو أن مخطط أصحاب الجنة كان محاولتهم القيام بعمل واحد فقط من شأنه أن يمنع دخول المساكين جنتهم بعد ذلك اليوم. فما هو ذلك العمل؟

جواب مفترى: لقد خطط أصحاب الجنة أن يصرموا جنتهم ولا يستثنون. انتهى:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: 17-18]

السؤال: كيف كانوا سينفذون ذلك؟ أي كيف كانوا سيصرمون جنتهم ولا يستثنون؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أصحاب الجنة قد كانوا يخططون أن يعملوا ما يشبه السور (السياج) حول جنتهم، من شأنه أن يحجز المساكين عن دخولها من أي جهة، فما استثنوا شيئًا منها خارج ذلك السور (السياج). فهم إذاً يريدون أن يحجزوا المساكين عن كامل ثمار تلك الجنة. ولا يبقوا من ذلك إلا مدخلًا واحدا صغيرا لأخراج التالف من الثمار منه. فصاحب الجنة التي تنبت الطيبات من الثمار يحاول أن يأخذ منها كل ما هو طيب، ثم يرمي بكل ما خبث منها خارجها (مكب نفاياتها). ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: 267]

لوجدنا أنها قد جاءت الدعوة الإلهية جليَّة بالإنفاق من طيبات ما رزقنا الله، وأن لا نتيمم الخبيث منه بالإنفاق.

ولو حاولنا إسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة، لربما صح لنا أن نفتري الظن بأن أصحاب الجنة قد اتخذوا قرارهم بحيازة طيبات تلك الجنة كلها لأنفسهم، ولا يخرجوا منها إلا ما خبث من خلال تلك الفتحة البسيطة. ويكأن لسان حالهم يقول "سنمنع المساكين من وصول الجنة وطيباتها جميعاً، لكننا سنرمي لهم بالفضلات (الخبائث) من خلال فتحة بسيطة جدًا".

ولو تدبرنا تلك المفردة "يصرمون" ومشتقاتها جيدا، لوجدنا أن الناس مازالوا يستخدمون هذه المفردة بهذا المعنى. فالإنسان يأكل الطيبات، ويتخلص من الخبائث بالتغوط من خلال فتحة الشرج التي يطلق عليها الناس (خاصة نحن الأردنيين) مصطلح "الصرم". فهذه ليست أكثر من المكان الذي تخرج منه فضلات الجسم بعد أن تكون من الخبائث.

وها هم قوم لوط يعملون الخبائث:

- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ [الأنبياء: 74]

لو دققنا جيدًا فيما كان يفعله أولئك القوم الفاسقين، لوجدنا أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين:

- ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: 165-166]

فالعلاقة الجنسية بين الذكران (وترك ما خلق الله لهم من الأزواج) تتم من خلال تلك الفتحة الشرجية (الصرم). فكانوا بذلك ممن يعملون الخبائث (مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ).

ولو دققنا في مثل هذه المفردات الشعبية، لوجدنا أننا نحن الأردنيين (منصوبة على الاختصاص) نستخدم مفردة "الصرماية" للدلالة على الحذاء (النعل). وخاصة إذا استخدمتها الأم لتاديب أبنائها في البيت بالإضافة إلى بعض القاطنين هناك. ما علينا!

السؤال: لماذا نسميها صرماية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنها تسمى كذلك من مبدأ الإحاطة، فالحذاء الذي يكون "صرماية" يحيط بكاحل الشخص الذي ينتعلها كما يحيط السوار بالمصعم.

ولو تدبرنا مفردة "العام المنصرم"، لوجدنا أنه منصرم لأنه أكمل ما يشبه الحلقة الكاملة بعد أن انتهى من حيث بدأ. فأنت تبدأ بـ 1-1- 2019 مثلا، وتنتهي بـ 31-12-2019. فيكون بذلك حلقة كاملة، لكن عام 2019 كله بالنسبة لنا الآن في 2020 هو عام منصرم.

تلخيص ما سبق: اتخذ أصحاب الجنة قرارهم بأن يمنعوا المساكين من الوصول إلى طيبات جنتهم، فقرروا أن يجعلوا حولها سورًا (سياجًا) يمنع المساكين من الوصل إلى حرثهم. ولكنهم في الوقت ذاته، اتخذوا القرار بأن لا يتركوا للمساكين إلا ما خبث منها من خلال فتحة واحدة صغيرة، فكان ذلك صرمًا لجنتهم:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: 17-18]

ولو دققنا في النص جيدًا، لوجدنا بأن أصحاب الجنة كانوا صارمين:

- ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: 22-25]

وعندما يكون الشخص صارمًا، فهو إذاً مصر على موقف واحد لا يتزحزح عنه، والقرار الصارم هو الذي يجب تنفيذه تحت جميع الظروف والأحوال، ولا يترك مجالًا مفتوحًا لقرار غيره. فعندما يصدر القرار الصارم حسب قانون الدفاع بحضر التجول مثلًا، فإن هذا القرار يجب أن ينفّذ بحذافيره، فلا يترك مجالاً للناس للاختيار. فالصرامة تكون بإبعاد جميع الخيارات الأخرى وتبني خيارًا واحدًا فقط يتوجب على الجميع الالتزام به بقوة القانون. ولو حاولنا إسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة، لوجدنا بأن قرارهم بأن يصرموا جنتهم ولا يستثنون كان قرارًا محسومًا بالنسبة لهم جميعًا (باستثناء أوسطهم الذي لم يكن ليستطيع صدهم عما سيفعلون في ذلك اليوم).

السؤال: إذا كانوا هم قد قرروا أن يصرموها (بمعنى يعملوا عليها سياجا)، فكيف أصبحت جنتهم كالصريم بالطائف الذي طاف عليها من ربهم؟

- ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 19-20]

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن تلك الجنة كانت بمكان مرتفع، وكانت لها أبواب للدخول إليها من جهات متعددة، وكانت هناك مسالك (طرق) تؤدي إلى تلك الابواب. لكن لما كانت خطتهم على نحو أن يصرموا جنتهم بإغلاق الأبواب جميعا، جاءها الطائف من ربك، فصرمها وهم نائمون، أي أحاطها بالإغلاق من جميع الجهات، فما عادت الطرق إلى تلك الأبواب سالكة، فتهدمت كل جوانبها، فما عادوا أنفسهم قادرين على الوصول إليها.

السؤال: هل كان بمقدورهم أن يعملوا ذلك السياج كله في صبيحة يوم واحد قبل وصول المساكين؟

راينا المفترى: نعم. كانوا يستطيعون لك؟

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بما أنها كانت أصلا جنة، فهي كانت (نحن نتخيل) محاطة بالسور (السياج) من قبل، لكن كان تلك الجنة أبواب مشرعة على الدوام لدخول المساكين إليها. فما كان أصحاب الجنة إذا سيفعلون في صبيحة ذلك اليوم (قبل قدوم المساكين) غير إغلاق الابواب جميعا. انتهى.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الجنة (أي جنة) لابد أن يكون لها أبواب. فحتى جنة الخلد الأبدية لها أبواب:

- ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾ [ص: 50]
- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: 73]

فمن يدخل الجنة، يدخلها من بابها. فهذا الرجل دخل جنته وهو ظالم لنفسه:

- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥﴾ [الكهف: 35]

فمن أين سيدخلها من غير بابها؟ نحن فقط نتساءل.

وهذا يعقوب يطلب من أبنائه أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يوسف: 67-68]

السؤال الأخير: ما علاقة مفردة "ليصرمنها" بمفردة مصر؟

رأينا المفترى: مادام أن مصر لها أبواب، ومادام أن مصر كانت جنة الله على الأرض، جاءت المقارنة بين أصحاب الجنة (محور حديثنا هنا) بما حلّ بفرعون وقومه في أرض مصر (التاريخ)، فقد حصل لهم ابتلاء مشابه لما حصل لاصحاب الجنة. وانظر عزيزي القارئ -–إن شئت - قصة اصحاب الجنة في سياقها الأوسع:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: 10-33]

ألا تجد أنها قد جاءت لتمثيل ما حصل بمن وسمه الله على الخرطوم بما حصل مع أصحاب الجنة؟

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: ما حل بالخرطوم (عاصمة السودان) من العذاب بسبب فرعون يشبه تمامًا ما كان قد حل بالطائف (أصحاب الجنة). وهذا ما سنناقشة إن شاء الله في مقالة قادمة متى ما أذن الله لنا بذلك. فالله وحده أدعوه أن علمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لاقرب من هذا رشدا، وأن يزدني علما، إنه هو العليم الحكيم.

عودة على بدء

السؤال: لماذا قرر أصحاب الجنة ذلك في ذلك اليوم على وجه التحديد أن يصرموا جنتهم؟ لم لم يتخذوا القرار من قبل؟

رأينا المفترى: لأنهم غدوا على حرد قادرين:

- ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: 25]

السؤال: كيف كانوا في ذلك اليوم على وجه التحديد على حرد قادرين؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في هذه الآية الكريمة جيدًا، لربما صح لنا أن نفتري الظن بأنهم لم يكونوا قادرين على حرد قبل هذا اليوم. لأنه كان هناك (نحن نتخيل) ما يمنعهم أن يقدروا على ذلك من قبل. ليكون السؤال الآن هو: ما الذي كان يمنعهم أن يغدوا على حرد قادرين قبل هذا اليوم؟ وما الذي جعلهم قادرين على ذلك في ذلك اليوم؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا: نحن نفتري الظن بأن الذي كان يمنعهم أن ينفذوا مخططهم هذا قبل ذلك اليوم هو والدهم أيوب نفسه. فلقد كان والدهم يمنعهم أن يصرموا تلك الجنة، لأنه كان هو صاحب الجنة، القادر على القيام بتدبير كل طيباتها بالطريقة التي كان يراها الأمثل حينئذ. فهو يرى (محقًا) أن تلك الجنة هي من فضل الله وحده، فكان الرجل – لا شك عندنا - من المسبحين، الذي يشكر نعمة الله عليه بالإنفاق منها على المساكين. فلم تكن يده مغلولة إلى عنقه، ولم يكن ليبسط يداه كل البسط، فما كان ملومًا ولا محسورًا. ولما كان هذا الرجل ما زال قادرًا على تنفيذ قراره رغمًا عن رغبة أبنائه، كان هو من يصدهم عن تنفيذ مخططهم. ولكن لا شك أن الأبناء (نحن ما زلنا نتخيل) قد تحينوا فرصة ضعف والدهم، فأصبحوا هم أصحاب القرار في ذلك، وآلت ملكية الجنة لهم، فكانوا هم أصحابها.

الدليل

لو تدبرنا قصة أيوب جيدًا، لوجدنا بأن الرجل قد مسه في وقت ما من حياته عذاب من الشيطان:

- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]
- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: 41-44]

فلا شك إذا أن أيوب (في فترة من عمره) قد مسه الضر، وكان الشيطان هو من مسه بنصب وعذاب، فما عاد (نحن ما زلنا نتخيل) قادرًا على القيام بأعباء جنته. فما كان منه إلا أن يلزم الفراش كشخص يعاني من الضر ومن مسه الشيطان بنصب وعذاب. وفي هذه الأثناء آل – برأينا المفترى من عند أنفسنا- أمر الجنة كلها والقيام عليها إلى أولاده، فأصبحوا على حرد قادرين.

ولو دققنا في مفردة الحرد، لربما صح لنا أن نفتري الظن بأن لها علاقة بطبيعة العلاقة بين الأشخاص. فأنت عندما تعمل شيئا يغضبني، فأنت قد اخترت أن اتخذ أنا منك موقفًا معاديًا، وربما يتسبب ذلك في قطع العلاقة بيني وبينك. وما زلنا حتى يومنا هذا نصف المرأة التي يغضبها زوجها بـ "الحردانة". فهي حردانة، لأن زوجها (أو بعلها) قد تصرف بطريقة ما أدت إلى أن تغضب منه وربما تقطع جسور العلاقة الطبيعية معه. وأنا قد أحرد منك بسبب تصرفك معي بطريقة أغضبتني، وهكذا.

ولو تدبرنا مفردة الحرد جيدا، لوجدنا بأنها لازالت تستخدم في الفرنسية (aride) والإنجليزية (arid) بمعنى الأرض القاحلة شحيحة الماء (والغيث). ولو حاولنا تجميع هذا المعنى مع ذاك، لوجدنا أن الجفاف

هو ما يجمعهما. فعلاقة "الحرد" بين الأشخاص تؤدي إلى جفاف العلاقة بين الطرفين بسبب طرف منهما، وهو الطرف الذي عزم على قطع العلاقة مع الطرف الآخر.

ولو حاولنا إسقاط ذلك على قصة أصحاب الجنة، لربما صح لنا أن نتخيل بأن الأولاد لم يكونوا قادرين على أن يغضبوا والدهم في فترة قوته وتحكمه بناصية الأمور، ربما لأن العواقب قد تكون كارثية عليهم لو أنهم فعلوا. لذا حاولوا (نحن نتخيل) مجاراته قدر المستطاع حتى آلت الأمور إلى أيديهم، وهناك (نحن نفتري الظن) انتهزوا الفرصة، فما عادت رغبة أبيهم في الإبقاء على الجنة مفتوحة للمساكين لترضيهم مهما كلفت الأمور. فقروا تجفيف العلاقة معه، ليحكموا هم بزمام الأمر غير آبيهين باستمرار العلاقة الطبيعية معه. ولعل هذا ما يحصل في الحياة الطبيعية في كل العائلات الراقية. فعندما يكون الأب مقتدرًا متحكمًا يخفت صوت الأبناء خوفًا من ردة فعل والدهم التي يمكن أن تكون قاسية عليهم لو أنهم خالفوا رغبته. لكن عندما يصيب الوالد الضعف بالمرض مثلًا، فإن رأي الأبناء (مدعومًا برغبة الأم إن كانت على غير وفاق مع بعلها) سيعلو فوق صوت الأب الذي ضعف، فما عاد قادرًا على اسكات أصواتهم كما كان يفعل في سابق الأيام.

ولا ننسى أن امرأة أيوب لم تكن على وفاق تام معه، بدليل أنه عندما جلب يوسف إلى بيته طلب منها أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا.

السؤال المربك: كيف تقول لنا – يسأل صاحبنا - أنه قد طلب من امرأته أن تكرم مثوى يوسف من أجل أن ينفعهم أو أن يتخذوه ولدا وهو أب لأحد عشر ولدًا (كما تزعم هنا)؟ ألا تجد أن قولك هذا يناقض بعضه بعضًا؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. وذلك لأننا الآن أمام عدة سيناريوهات محتملة، سنحاول طرح أبرزها، ثم نحاول اتخاذ القرار في واحدة منها - بحول الله وتوفيق منه - بعد نهاية النقاش في ها الباب. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

السيناريو الأول: أن أيوب كان ما زال شابًا يافعًا عندما أحضر يوسف من مصر، ولم يكن له ولد بعد. وتحصلت له الذرية بعد أن أحضر يوسف إلى بيته. ولما كانت العلاقة بينه وبين امرأته متشنجه اتخذ قراره بالزواج بغيرها، فكان له من الأبناء من أكثر من امرأة واحدة. وحصل كل ذلك بعد اتخاذه يوسف ولدًا.

السيناريو الثاني: أن أيوب كان له ذرية، لكن كان على علاقة غير متصالحة معهم، بسبب موقفهم من الجنة، فكان قادرًا على أن يتخذ قراره بمنعهم عن السيطرة على الجنة، فسبب الخصام بينهما، فما كان منه إلا أن يبعدهم عن البيت، ويتفرغ هو بذاته (مع يوسف) لإدارة شؤون الجنة. فاتخذ يوسف ولدًا له في غياب أبنائه جميعًا عنه.

السؤال: أي السيناريوهات هو الأمثل؟

رأينا المفترى: إذا سلمنا بأن أيوب قد هو من اشترى يوسف من مصر وهو من أحضره إلى بيته، فإننا على يقين بأنه حيثما حل يوسف (الغلام) وجدت المشاكل ووجدت في الوقت ذاته الحلول لمشاكل عظيمة. وهذا يدعونا إلى تقديم الافتراءات التالية:

⇐ وجود يوسف في مكان ما يسبب المشاكل
⇐ وجود يوسف في مكان ما يحل مشاكل عظيمة

فلقد كان يوسف – نحن نرى- هو محرك المشاكل التي نشبت بين يعقوب وأبنائه في الزمان المنصرم. وكان يوسف هو محرك المشكلة في بيت العزيز، وهو محرك مشكلة النسوة اللاتي راودنه عن نفسه في المدينة. وكان يوسف هو محرك دخول الفتيان معه السجن، وهكذا. والسبب في ذلك هو أنه حيثما حل يوسف في مكان، كان هناك شخص رئيسي يقع حب يوسف في قلبه، فيكون سبب مشاكل لمن حوله. فيعقوب هو من أحب يوسف، فحرك بذلك غيرة إخوة يوسف نحوه. وامرأة العزيز هي التي وقعت في حب يوسف في قلبها، فكان ذلك سبب دخوله السجن، والنساء اللاتي راودن يوسف عن نفسه، كن هن السبب في بقائه في السجن سنين عددا. وهكذا.

وبالقابل، كان يوسف نفسه هو سبب انفراج العلاقة التي كانت متشنجة بين يعقوب وأبنائه في نهاية القصة، وكان هو سبب حل المشكلة بين امرأة العزيز وزوجها، وكان هو من حل مشكلة مصر كلها عندما أول للملك رؤياه، وهكذا. وكان يوسف (نحن سنفتري القول الآن) هو سبب حل مشكلة يعقوب في العقم. انتهى.

لذا، نحن نتخيل أنه في اليوم الذي جلب أيوب يوسف إلى بيته، ازدادت مشاكله مع أهل بيته، لكن كان أيوب يعلم أن واجب تعليم يوسف هو من المصلحة الأعلى للبيت الإسرائيلي كله، لعلمه (بما عنده من علم الكتاب) بمكانة هذا الغلام المستقبلية. لكن ابنائه لم يكونوا ليرتاحوا لوجود يوسف بينهم، ومعاملة والدهم المميزة له على حسابهم.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن أيوب عندما أحضر يوسف إلى بيته، اتخذه ولدًا، فجعله القائم على شؤون جنته كله، مستبعدًا جميع أبنائه عنها. ولا شك عندنا أن مثل هذا الفعل من أيوب قد اثار حفيظة الأبناء على والدهم، لكن قوة أيوب واقتداره على تنفيذ قراره، جعل الأبناء غير قادرين على اتخاذ قرار يمكن أن يسبب غضب (حرد) والدهم. فما كانوا قادرين على حرد قبل هذا اليوم الذي ضعف فيه أيوب وأصابه المس من الشيطان. فقد كان الرجل بكامل قوته البدنية والذهنية، وكان يوسف ذراعه الأيمن في العمل في الجنة. وهناك في تلك الجنة علّم أيوب يوسف علم تأويل الأحاديث (العرش). وهناك تعلم يوسف علم الزراعة التي استفاد منها بما تحصل له من الخبرة فيها بعد ذلك في أرض مصر عندما حصلت رؤيا الملك. فيوسف لم يؤول لهم الرؤيا فقط، ولكنه دلهم أيضا على الحل الزراعي الأمثل للخروج من الأزمة كلها بأقل الخسائر الممكنة، أي بالطريقة الأمثل:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨﴾ [يوسف: 47-48]

السؤال: من أين حصل يوسف على تلك الخبرة الزراعية بحفظ المحاصيل فترة طويلة من الزمن؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن خبرة يوسف السابقة في جنة أبيه أيوب كانت هي – برأينا- السبب فيما تحصل له من معرفة بطريقة التعامل مع المحاصيل الزراعية فترة طويلة من الزمن. ولو تدبرنا قول يوسف للملك، لوجدنا أنه ينطوي على أمرين اثنين، وهما:

⇐ طريقة حفظ المحاصيل فترة طويلة من الزمن (أي التخزين)
⇐ طريقة توزيع تلك المحاصيل وصرفها على مستحقيها طوال فترة الحاجة.

السؤال: كيف اكتسب يوسف هذه الخبرات العملية؟

رأينا المفترى: لمّا كان يوسف هو القائم الرئيسي على جنة أيوب، كان يعلم تمامًا أن مهمته أيضا تكمن في تخزين تلك المحاصيل أطول فترة ممكنة من الزمن، لتسد حاجة كل الحجيج إلى البيت الحرام. كما كان يعلم (نحن نرى) كيف يجب توزيعها بمقدار على الجميع. فهو إذا يملك الخبرة في التخزين والتوزيع. وهذا ما أشار به على الملك للخروج من الأزمة التي ستقع بها كل مصر في القادم من الأيام.

السؤال: لماذا ترك يوسف يعقوب وذهب إلى مصر؟

رأينا المفترى: لمّا كان يوسف هو من قام على أمر جنة أبيه أيوب فترة طويلة من الزمن، ما كان من أبناء أيوب (يوم أن بلغوا أشدهم) إلا أن بدأوا يشعرون بالغيرة من وجود يوسف بينهم. ولما كان أيوب مدافع بكل ما أوتي من قوة عن يوسف وعن جنته أمام أطماع أبنائه، حصل الخلاف بين الأب والأبناء. فكيف سيتصرف يوسف في هذه الأثناء؟

رأينا المفترى: لما كان يوسف قد حصل على علم تأويل الأحاديث، ولما كان قد حصل على الخبرة الزراعية الكافية للعمل فيها في مكان آخر، ولما وجد أن أولاد أبيه أيوب الحقيقين قد بلغوا مبلغ الشباب وأنهم قد أصبحوا يستطيعون إدارة أملاك والدهم، ولما كان يوسف لا يرغب في مزيد من الانهيار في علاقة الوالد بالأولاد، قرر أن يتخلى عن ذلك الموقع وينطلق لإتمام مهمته في أرض أخرى، فما كان ليجد أفضل من مصر لينطلق في دعوته إلى الله فيها. فلقد ذهب يوسف إلى الأرض التي وطأت قدما أبيه الأول إبراهيم عندما حاججه الذي آتاه الله الملك:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: 258]

فلقد كان ذلك الملك هو مؤسس الدولة المصرية حينئذ. وكان هو من حاج إبراهيم في ربه. فبالرغم من أن إبراهيم قد قدّم له البراهين على بطلان دعواه، إلا أنه لم يتقبل دعوة إبراهيم إلى الله. فاستمر الكفر سائدًا في تلك البلاد، فذهب يوسف (نحن نرى) ليتم المهمة التي لم يوفق بها أبوه الأكبر إبراهيم، ألا وهي نشر رسالة التوحيد في أرض مصر. وبالفعل نجح يوسف في ذلك، فانقلبت مصر من بلاد الكفر إلى بلاد التوحيد، فدخلها بنو إسرائيل آمنين حتى حصل الإنقلاب الفرعوني على الحكم الملكي الذي كان بنو إسرائيل أحد أهم ركائزه. فجاء الحكم الفرعوني ليسومهم سوء العذاب. وما تخلص بنو إسرائيل من العذاب المهين إلا عندما أرسل الله موسى وهارون، فكانت مهمة موسى تتمثل بإخراج بني إسرائيل من مصر إلى ألارض المقدسة:

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

السؤال: لقد زعمت سابقًا أن يوسف كان سببًا في حل مشكلة أيوب بالعقم، فكيف ذلك؟ يسأل صاحبنا مستغربًا.

رأينا المفترى: لو دققنا في النص القرآني الخاص بقصة أيوب، لوجدنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: 41-43]

ولو حاولنا تدبر هذه الأيات جيدًا، لوجدنا اللفظ قد جاء على صيغتين فيما يخص ذرية هذا الرجل الصالح. فلقد جاءت تارة بلفظ الوهب:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: 43]

وجاءت تارة أخرى بلفظ الإتيان:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 84]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: لقد افترينا القول في أكثر من مقالة سابقة لنا، بأن الذرية إذا جاءت بلفظ الوهب، فإن ذلك يعني أن الشخص يعاني من مشكلة في الإنجاب فما تحصلت له الذرية إلا هبة من الله. فهذا إبراهيم يحصل على الذرية هبة:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

فمادام أن الرجل قد تقدم به العمر، فهذا يعني أن الحصول على الذرية بالطريقة الطبيعية ربما قد اصبح صعب المنال، فجاءته الذرية هبة من الله. وكذلك كان داوود الذي وهب الله له سليمان، وكذلك كان زكريا الذي دعا الله أن يهب له ذرية طيبة بعد أن عجز أن ينالها بالطريقة الطبيعية، فكان له ما أراد بيحيى. وكذلك كان المسيح لمريم هبة من الله. وهكذا. (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة).

لكن المتدبر لسيرة هؤلاء الصالحين من عباد الله، سيجد على الفور أن جميعهم كانوا مقلين في الإنجاب، فكانت الذرية تتحصل لهم بالهبة. باستثناء شخص واحد من بينهم جميعا، ألا وهو يعقوب الذي كانت له ذرية كثيرة. فكان له أحد عشر ولدا بالإضافة ليوسف. فكيف تحصل يعقوب على هذه الذرية الكثيرة؟ ولماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا أغرب من الخيال نفسه: إنه القميص. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

راينا المفترى: لما كان يعقوب يملك إرث النبوة من القميص والعصا، لم يكن مؤهلًا أن يلبس ذلك القميص، لأنه ببساطة من حق شخص واحد هو ولده يوسف، الذي سيكون قائد بني إسرائيل أجمعين. لكن هذا لا يمنع أن الرجل قد اكتسب بركة ذلك القميص، فبحيازته لذلك القميص (دون لبسه)، اكتسب الرجل من القوة الكامنة فيه. فذلك القميص كان هو طاقة الإنجاب الذي كان يتوجب على آدم أن يستخدمها بالنفخ في فرج زوجه لينجب منها بطريقة الخلافة. لكن إذا ما لبس الشخص ذلك القميص، فإنه لا يستطيع الإنجاب بطريقة الملك (التكاثر الجنسي). وهذا كان – برأينا – سبب هلاك يوسف. فمادام أن يوسف قد لبس القميص، فإنه لن ينجب بطريقة جنسية، فهلك:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

لذا، نحن نفتري أن قدوم يوسف مع أيوب (ومعه ذلك القميص) كان سببًا في حل مشكلة ايوب الجنسية. فأيوب لم يكن مؤهلًا للبس القميص، لكنه اكتسب منه (كما اكتسب ابن عمه يعقوب) تلك الطاقة الرهيبة الكامنة فيه. فكان انجابه لأبنائه هبة من الله، بما أنعم الله عليه من مجيئ يوسف إلى بيته (حاملًا ذلك القميص).

وبالفعل ما أن قدم يوسف إلى بيت يعقوب، حتى بدأت مشكلة الرجل في الإنجاب تنحل، فكانت له ذرية كثيرة من الأبناء. فتحصل له أحد عشر من الأبناء كابن عمه يعقوب (بالإضافة إلى ابنه يوسف). وقد كان يوسف يكبر أبناء أيوب جميعًا في السن، فكان قائمًا على تلك الجنة مع أبيه أيوب حتى اشتد عود أبنائه. ولما بلغ أولئك الأولاد مبلغ الفتية، حتى شعر يوسف بأنه ما عاد له مكان بينهم خصوصًا مع نشوب بوادر الخلاف بينهم وبين والدهم أيوب على سياسته في تلك الجنة. فاختار يوسف الابتعاد عن المكان حتى لا يكون سببًا في تأزم العلاقة بينهما.

لكن ما أن غادر يوسف بيت أبيه أيوب حتى بدأت مشاكل أيوب الصحية تتوالى، فكان مس الشيطان حاضرًا، فأصابه المرض، وآلت إدارة شؤون الجنة إلى الأبناء، فغدوا على حرد قادرين.

ولكن لو حاولنا تدبر الآية الأخرى التي تتحدث عن ذرية أيوب، لوجدناها قد جاءت بلفظ الإتيان:

- ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢ * وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 82-84]

ولو تدبرنا هذه الآيات على وجه التحديد، لوجدنا أن إتيان أيوب الأبناء قد جاء مصاحبًا لمثلهم معهم (وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ). ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

لو تدبرنا مفردة الإتيان على وجه التحديد، لوجدنا بأن الإتيان يكون لاستحقاق طبيعي، فمن أوتي الكتاب، فهو قد استحقه بطريقة طبيعية، وهكذا. فعندما حصلت قصة أصحاب الجنة، وأدرك الأبناء سوء ما خططوا، وعلموا الحكمة التي كان من أجلها يدخل والدهم المساكين تلك الجنة، رجعوا إلى أنفسهم وأقروا بأنهم كانوا ظالمين:

- ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم: 26-33]

فهنا أصبح الأبناء ليس فقد ابناء بيولوجيين تربطهم بوالدهم رابطة الدم فقط، وإنما رابطة العقيدة أيضا. فكان الله هو من منّ على أيوب بأن آتاه أبناءه بعد أن ضلوا بعد أن كان قد وهبهم له بعد أن كان عاجزًا عن انجابهم. فكان ابناءه هبة من الله وإتيان منه كذلك. لا بل وزادت منة الله بأن كان مثلهم معهم (أبناء يعقوب)، يوم أن تجمعوا جميعًا تحت لواء يوسف في أرض مصر.

وسنتحدث بتفصيل أكثر عن بقية قصة أيوب في مقالات قادمة متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدًا، وأن يزدني علمًا، إنه هو العليم الحكيم

السؤال الآخير: لماذا زعمت (يسأل صاحبنا) بأن الطائف هي المنطقة التي كانت بها تلك الجنة؟

رأينا المفترى: دقق عزيزي القارئ الكريم – إن شئت- في السياق القرآني ذاته مرة أخرى:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا

يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ
أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾
[القلم: 17-33]

ألا ترى أن عذاب الله الذي أصاب تلك الجنة قد تم بطريقة الطواف؟ ألم يطف عليها طائف من ربك فأصبحت كالصريم؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (لا تصدقوه إن شئتم): لمّا كان أصحاب الجنة عازمون أن يصرموا جنتهم، أي أن يقيموا عليها سورًا (أو لنقل سياجاً) يمنع المساكين من دخولها، كان العذاب الإلهي من جنس ما خططوا. فعذاب الله الذي وقع على تلك الجنة قد أصاب (نحن نفتري القول) المنطقة التي تحيط بجنتهم والتي كان من المفترض أن يقيموا عليها ذلك السياج الذي كان سيمنع المساكين من دخولها، فحدود العذاب الإلهي هو ذلك السياج الذي كان عازمون على تشييده. فكما خططوا أن يحصنوا المنطقة بسياج حول الجنة ولا يستثنون، جاء العذاب، فصرم الجنة بأكملها ضمن حدود ذلك السياج الذي كانوا عازمين على تشييده. لذا كانت ردة فعلهم الأولى عندما وصلوا للمكان على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ [القلم: 26]

فلقد ظن أصحاب الجنة عندما اقتربوا من حدود جنتهم بأنهم قد ضلوا الطريق إليها، لهول ما أصابها ولدقة العذاب الذي وقع عليها، فما تجاوز العذاب الإلهي حدود جنتهم قيد أنملة. لكن ذلك لم يكن ليمنعهم أن يعرفوا أنها فعلًا جنتهم التي وقع عليها العذاب. فجاء قولهم بعد ذلك مباشرة:

- ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: 27]

نعم لقد أقروا أنها فعلا جنتهم، وأن الله قد حرمهم منها لما مكروا فيها. فأقروا بذنبهم، فاستغفروا ربهم، ولم يعدموا رحمة الله (كذرية مؤمنة) بأن الله سيبدلهم خيرًا منها. وبالفعل، أبدلهم الله خيرًا منها، فعادت تلك المنطقة (الطائف) جنات يانعة، وبقي الاسم معروفًا حتى يومنا هذا. إنها الطائف.

السؤال: هل تعلم - عزيزي القارئ الكريم- لم تسمى تلك المنطقة بالطائف؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أنها تسمى الطائف، لأنها هي منطقة أصحاب الجنة التي طاف عليها طائف من ربك، فظلت في وجدان القاطنين هناك محفوظة بالاسم حتى وإن نسوا قصتها الأولى.

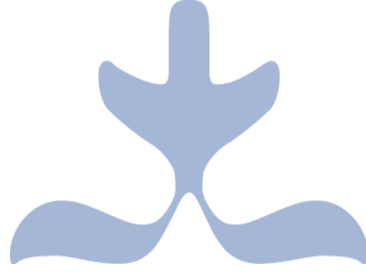
فها نحن نذكر أهل الطائف بقصة مدينتهم عسى أن تبقى هي الجنات التي تنفق من خيراتها على الحجيج إلى بيت الله الحرام. داعيًا الله وحده أن لا ينزل العذاب عليها من جديد، مادام أهلها لا يحرمون

المساكين حقهم فيها. أما من يمكرون بالبيت العتيق (ونحن بإذن الله نعرفهم)، فنحن على العقيدة التي مفادها أن ذلك هو بيت الله، وأن الله لن يدع شياطين الإنس والجن يعبثون به. فمهما أحاطوه بالرافعات، فسوف تنهار فوق رؤسهم، ومهما حاولوا زعزعة بنيانه المرصوص، فالله وحده كفيل أن يهزمهم شر هزيمة. وسيعود البيت بإذن الله إلى القواعد التي رفعها إبراهيم وسينكشف سقفه، وسندخله بإذن الله آمنين محلقين رؤسنا ومقصرين، وسنقيم به شعائر الله كما فصلها لنا في كتابه الكريم رغم أنف كل الذين يصدوننا عن سبيله. فالله وحده نسأل أن ينفذ مشيئته لنا بحج البيت له وحده. إنه هو العزيز الكريم، انتهى.

وللحديث بقية بإذن الله.

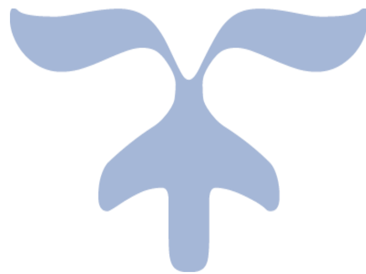
سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه في ذلك كل، علماً لا ينبغي لأحد غيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطاناً نصيراً، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم. وأخيراً، فالله خير حفظاً وهو أرحم الراحمين.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد معتصم مقداد
بقلم: د. رشيد الجراح
27 آذار 2020



جغرافية القرآن

قصة سبأ



قصة سبأ

سنتعرض في هذه المقالة الجديدة لقصة سبأ كما جاءت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ
غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ
قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى
ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ
فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ
مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 15-22]

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزدنا علماً، إنه هو العليم الحكيم .

أما بعد،

تعرضنا في المقالة السابقة لقصة أصحاب الجنة. وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن تلك جنة كانت متواجدة في مدينة الطائف، كما ظننا (ربما مخطئين) بأن أصحابها هم أبناء نبي الله أيوب (ولد إسماعيل الذي أسكنه الله في ذلك الواد عند بيت الله الحرام). كنا قد زعمنا القول من عند أنفسنا بأن يوسف هو من كان قائمًا عليها فترة من الزمن، وأنه قد اكتسب الخبرة الزراعية التي استفاد منها عندما انتقل إلى مصر من هناك. ويستطيع المهتم بالموضوع الرجوع إلى تلك المقالة ليقرا التفاصيل فيها. لكن ما يهمنا من تلك القصة هنا هو شيء واحد، ألا وهو أن بيان تلك القصة قد ورد في كتاب الله لإجراء مشابهة لها بما حدث لقوم آخرين من بعدهم. وأن هؤلاء القوم اللاحقين قد أصاب أرضهم وديارهم مثل ما أصاب أرض أصحاب الجنة من البلاء. ولننظر مرة أخرى في تلك الآيات لنحاول الخروج باستنباطات مفتراة من عند أنفسنا عن أولئك القوم الذين أصاب ديارهم مثل ما أصاب أصحاب الجنة من قبل. قال تعالى:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩
فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا
يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ

أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾
[القلم: 17-33]

ليكون السؤال الرئيسي هنا هو: من هم أولئك الذين وقع عليهم البلاء الذي يشبه البلاء الذي وقع على أصحاب الجنة؟

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧﴾ [القلم: 17]

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن القوم الآخرين (المكذبين) الذين أصاب جناتهم مثل ما أصاب جنة أصحاب الجنة هم قوم سبأ. انتهى.

الدليل

لو دققنا في قصة أصحاب الجنة في سياقها الأوسع، لوجدنا أن الآيات التي سبقتها هي الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ
لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ
١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧﴾ [القلم: 8-17]

السؤال: من هم أولئك المكذبون؟ ومن هو ذاك الهماز المشاء بنميم الذي كان مناعًا للخير معتد اثيم، عتل بعد ذلك زنيم، الذي وسمه الله على الخرطوم؟ وما علاقة هذا الرجل بأولئك المكذبين؟

رأينا المفترى: لقد افترينا الظن في الجزء السادس من مقالتنا تحت عنوان "فقه الزكاة" بأن هذا الشخص هو فرعون الذي جاءه موسى بالرسالة. (للتفصيل انظر عزيزي القارئ – إن شئت- ذلك الجزء من المقالة).

نتيجة مفتراة: إن صحّ افتراؤنا هذا، فإن أول استنباط يمكن أن نفتريه هنا هو أن السياق القرآني الذي يبين التشابه بين ما حصل مع أصحاب الجنة هو تشابه مع ما حصل قوم مكذبين، هو - برأينا - القوم الذين ورثوا لأرض من بعد فرعون في مصر التاريخية. ولو دققنا في السياق السابق لوجدنا أنه بالرغم أن الحديث قد جاء عن شخص واحد (ألا وهو – برأينا- فرعون)، لكن البلاء كان لجمع من الناس بدليل تغير اللفظ من المفرد إلى الجمع عند الحديث عن البلاء. دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في التناوب في استخدام الضمير من المفرد إلى الجمع:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧﴾ [القلم: 10-17]

فالبلاء في ذهاب الطيبات لم يقع على شخص فرعون ولكن على قوم (مجموعة من الناس)، بدليل مفردة (بَلَوْنَاهُمْ). فمن هم أولئك الذين حصل لهم البلاء كالذي حصل لأصحاب الجنة من قبلهم؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه كما تم بلاء أصحاب الجنة (بذهاب طيبات جنتهم) قد تم كذلك تدمير جنة قوم لهم علاقة – برأينا- بفرعون في أرض مصر. فلقد أصاب أولئك القوم مثل ما أصاب جنة أصحاب الجنة، فهو البلاء ذاته المتمثل بنقص الثمرات.

وهنا نحتاج أن نستذكر افتراء قديم لنا مفادة أن أرض مصر هي نفسها سبأ. فمفردة سبأ هي التي تحورت مع تقادم الأيام إلى "شيبة" ثم "طيبة"، وأخير أصبحت مصر. (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته وسلسلة مقالات فقه الزكاة وقصة يونس وقصة موسى). وهذا التحور في اللفظ ليس مفاجئًا، فلقد حرفت كثير من الألفاظ على ذلك النحو. ولا يسعنا إلا أن نستذكر هنا مثلًا مفردة فلسطين المحرفة أصلًا (نحن نرى) من مفردة سنين، ففلسطين هي ذاتها سينين:

- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: 1-2]

وسنتعرض لهذه الجزئية في مقالات قادمة بإذن الله. أما ما يهمنا هنا هو القول بأننا قد حاولنا في تلك المقالات تسطير افتراءتنا بما يتعلق بتحديد جغرافية مصر القديمة (التاريخية). وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن منطقة الأهرامات هي أرض عاد التي أهلكها الله بالريح الصرصر العاتية التي غمرت منطقة الهرم (إرم) فما تبقى منها إلا ما بقي ظاهرًا فوق تلك الرمال من قمم الأهرامات التي هي كالجبال (الأوتاد). وكان فرعون هو من علم سر تلك الأهرامات، فاستفاد منها لكي يعلو في الأرض:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر: 6-10]

فكانت حضارة عاد قائمة في شمال مصر التاريخية (وهي مصر الحديثة)، بينما كانت حضارة ثمود في ذلك الواد (وادي النيل) عند منطقة المحرقة التي خطط فرعون للقضاء على بني اسرائيل فيها يوم حصلت المواجهة بين موسى من جهة وفرعون (ممثلًا بسحرته) من جهة أخرى (انظر سلسلة مقالات الحج إن أردت تحديد المنطقة على الخارطة الجغرافية الحديثة). وكان فرعون هو الذي استفاد من العلم العظيم الذي شُيّدت عليه تلك الحضارتان العظيمتان. فكان هو ذو الأوتاد (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ).

إن الغرض من هذه المقدمة كلّها هنا هو تسطير الافتراء التالي: إن أرض مصر التاريخية هي المنطقة كلها الذي يشقها نهر النيل من منبعه إلى مصبه. وهذه الأرض كانت تسمى (نحن نظن) بسبأ. فكانت جنتان عن يمين وشمال:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: 15]

فأرض سبأ (طيبة) هي عبارة عن جنتين (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ)، لأن النيل العظيم يشقها، فتكونت جنة عن يمين ذلك النهر العظيم (الجهة الشرقية من النهر)، كما تكونت جنة عن شمال ذلك النهر العظيم (المنطقة الغربية).

افتراء 1: نحن نظن أن الجنتين (أي جنتين) لا يمكن أن يتشكلا معًا (عن يمين وشمال) إلا أن يتفجر خلالهما نهرًا:

- ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: 32-33]

فالجنتان معًا (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ) عندما يمرّ من خلالهما نهرًا (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) تتكون إحداهما عن يمين النهر والأخرى عن شماله. فلقد كانت سبأ عبارة عن جنتين يتخللهما نهر، ألا وهو النهر العظيم. انتهى.

لذا، كان ما أصاب هاتين الجنتين هو خراب ثمارهما، فما عادتا كما كانتا، وكل ذلك كان بسبب إعراضهم. قال تعالى:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 15-22]

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا (لا تصدقوه إن شئتم): حصل البلاء لسبأ في جنتيهما كما حصل الابتلاء لأصحاب الجنة من قبل.

وهنا نبدأ بطرح التساؤلات المثيرة والكثيرة جدًا عن هذه الآيات، نذكر منها:

⇐ ما هي سبأ؟
⇐ ما تلكما الجنتان؟
⇐ متى حصل البلاء لأصحابها بذهاب طيبات جنتيهما؟
⇐ لماذا وقع عليهما العذاب على تلك الشاكلة؟
⇐ الخ

وسنثير تساؤلات فرعية كثيرة جدًا عندما نتناول هذه التساؤلات الرئيسية تباعًا.

الباب الأول: ما هي سبأ

رأينا المفترى: نحن نظن بأنها هي مصر التاريخية التي تبدأ من منبع نهر النيل العظيم إلى مصبه. وكانت كلها جنات وعيون، لكن لمّا كانت المنطقة الشمالية هي أرض عاد التي أصابها العذاب بالريح العقيم، ما عادت كذلك:

- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 6-7]

فبقيت جنة عن يمين ذلك النهر، بينما أصبحت الجنة التي كانت عن شماله تغطيها كثبان الرمل الهائلة. لكن بقيت المنطقة الجنوبية هي الجنات التي لم يصبها العذاب بعد. فظلت جنات يانعة عن يمين وشمال حتى زمن حكم فرعون فيها. فلقد كانت تلك الأرض في زمن فرعون جنات وعيون وزروع ومقام كريم:

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

وهذا يدعونا إلى تقديم الافتراء الخطير جدًا جدًا التالي: لم تكن المدينة (عاصمة فرعون) في شمال سبأ (مصر الحديثة)، ولكن في جنوب سبأ (السودان الحديثة)، وهي على وجه التحديد مدينة الخرطوم (انظر صور الرسوم الفرعونية التي هي أقرب إلى تفاصيل وجه الرجل السوداني والمصري الجنوبي منها إلى المصري الشمالي) وهنا يمكن أن نبدأ بفهم الآيات الكريمة التالية حسب منطقنا المفترى هذا من عند أنفسنا:

- ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧﴾ [القلم: 16-17]

فالخرطوم هي (برأينا) مقر حكم فرعون. انتهى.

وعندما حصل الهلاك لفرعون وقومه لم يكن عذابهم من النوع الذي دمر تلك الجنات، بل كان عذابهم عل نحو تدمير ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

فدمّر الله ما أحدثه فرعون وقومه في تلك الديار، لكن بقيت الأرض ذاتها جنات وعيون وزروع ومقام كريم، فأورثها الله لقوم آخرين:

- ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

وكان أول هؤلاء هم الذين استضعفوا في تلك الأرض، إنهم بني إسرائيل:

- ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]

وظل جزء كبير من بني اسرائيل يسكنون تلك الجنات بعد هلاك فرعون حتى زمن سبأ التي كانت تملكهم تلك المرأة العظيمة في زمن نبي الله سليمان حتى جاءه بنبأ منها ذلك الهدهد:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦ ۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [النمل: 20-28]

ومع مرور الزمان من عهد موسى (زمن فرعون) إلى عهد سليمان (زمن تلك المرأة في سبأ) أصاب عقيدة بني إسرائيل الذين مكثوا في تلك المنطقة التحريف، فتحولت عقائدهم إلى عبادة الشمس بدلًا من

عبادة الله الواحد القهار. ولكن عندما جاء سليمان بتلك المرأة (صاحبة العرش العظيم) وأسلمت معه لله رب العالمين، عادت عبادة الله الواحد القهار إلى تلك المنطقة بأكملها، فسليمان لم يكن ليرضى إلا أن يأتوه مسلمين:

- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾ [النمل: 38]

وبالفعل أسلم القوم مع سليمان بعد أن أسلمت من كانت تملكهم:

- ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ [النمل: 44]

ولا شك عندنا بأن الذين ظلوا يقطنون تلك الديار من بني إسرائيل بعد هلاك فرعون كان لديهم من العلم الكثير. وسنحاول التعرف على مصادر هذا العلم بعد قليل بإذن الله. لكن أهم ما كان ينقصهم حينئذ هو معرفتهم بأحقية العودة إلى الأرض المقدسة والحاجة إلى العودة إليها. فلقد عادت فكرة الحنين والرجوع إلى الأرض المقدسة إلى قلوبهم خصوصًا بعد معرفتهم بأن جزءً كبيرًا منهم قد عاد إليها عن طريق طالوت الذي قتل جالوت. فلقد كان بنو إسرائيل متواجدين في الأرض المقدسة في زمن نبي الله سليمان الذي هو أصلًا ولد نبي الله داوود الذي كان هو من قتل جالوت في المواجهة التي حصلت بين الطرفين من قبل:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة: 251]

فكان التوزيع الجغرافي على النحو التالي:

⇐ كان سليمان يسكن منطقة الخليج العربي (انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)
⇐ كانت سبأ (مصر التاريخية الجنوبية) هي التي يسكنها قوم تلك المرأة بمن فيهم بقايا بني إسرائيل الذي أورثهم الله تلك الأرض بعد هلاك فرعون وقومه
⇐ كان جزء آخر من بني اسرائيل يقيمون في الأرض المقدسة التي أعادهم إليها طالوت بعد قتل جالوت، وهؤلاء هم الذين تابعوا المسير مع موسى في سابق الزمان بعد خروجهم من مصر.

فتصبح قصة بني اسرائيل بعد هلاك فرعون (كما نتخيلها طبعًا) على النحو التالي:

⇐ تابع جزء من بني إسرائيل المسير مع موسى إلى الأرض المقدسة

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

وهؤلاء هم الذين فتنهم السامري، وهؤلاء هم الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة عندما طلب منهم ذلك نبيهم موسى، وهؤلاء هم الذين حرّم الله عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون في الأرض. وهؤلاء هم الذين هادوا بعد ذلك، ودخلوا الأرض المقدسة، وهؤلاء هم الذين أُخرِجوا منها حتى جاء نبي لهم من بعد موسى فعاودوا دخولها على يد الملك طالوت الذي كان داوود (ولد ذلك النبي) واحدًا من جيشه، فكان داوود هو من قتل جالوت. وعاد بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

⇐ لكن بالمقابل، آثر جزء من بني إسرائيل عدم متابعة المسير مع موسى باتجاه الأرض المقدسة، فكان لهم وراثة الأرض في مصر بعد هلاك فرعون وقومه:

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

نتيجة مفتراة خطيرة جدًا من عند أنفسنا: بعد هلاك فرعون وجنده في البحر، انقسم بنو إسرائيل إلى فريقين. تابع الفريق الأول مسيرته مع موسى باتجاه الأرض المقدسة، بينما عاد الفريق الآخر لوراثة أرض مصر. انتهى.

لكن لو دققنا في الآيتين السابقتين جيدًا، لوجدنا أن وراثة تلك الأرض من بعد هلاك فرعون قد جاءت مرة بلفظ "بني إسرائيل" (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)، بينما جاءت تارة أخرى بلفظ "قوما آخرين" (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ). ليكون السؤال المباشر الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن عبارة "بني إسرائيل" الواردة في السياق الأول شيء وعبارة "القوم الآخرين" الواردة في السياق الثاني شيء آخر. فلا يجب الخلط، لأنه لابد (نحن نؤمن) من وجود دلالة مهمة أوجبت تناوب اللفظ في هذه السياقين القرآنين. فما الذي نستفيده هنا من هذا التناوب اللفظي؟

رأينا المفترى: إن أولّ ما يمكن أن نستنبطة هو أن الوراثة المباشرة لتلك الأرض بعد هلاك فرعون كانت لبني إسرائيل (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ). فبنو إسرائيل هم من ورثوا الأرض مباشرة بعد هلاك فرعون وجنوده، وخاصة بعد أن دمّر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون. لكن مع توالي الأيام وتقلب الأحوال، لم تبق وراثة تلك الأرض حكرًا على بني إسرائيل، فقد شاركهم في ذلك (نحن نتخيل) قوما آخرين (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)، فاختلطوا في مكون واحد يتشاركون جميعًا وراثة تلك الأرض.

الدليل

دقق عزيزي القارئ في السياقين السابقين مرة أخرى، وانظر – إن شئت- الفرق بينهما، خاصة بما يتعلق بالموروثات:

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

ألا تجد - عزيزي القارئ - تطابقًا عجيبًا بين السياقين باستثناء شيء واحد من تلك الموروثات؟
دعنا نطرح السؤال على النحو التالي: ما هي الموروثات التي وردت في سياق وراثة بني إسرائيل تلك الأرض؟

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]

جواب مفترى: كانت موروثات بني إسرائيل هي:

⇐ جنات وعيون
⇐ وكنوز
⇐ ومقام كريم

السؤال الآن: ما هي تلك الموروثات كما وردت في سياق الحديث عن القوم الآخرين؟

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

جواب مفترى: كانت موروثات القوم الآخرين هي:

⇐ جنات وعيون
⇐ وزروع
⇐ ومقام كريم

هل وجدت عزيزي القارئ التشابهات بين السياقين (جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَمَقَامٍ كَرِيمٍ). ثم ألا ترى الفرق بين السياقين (وَكُنُوزٍ مقابل وَزُرُوعٍ) ؟ ألا ترى أن الكنوز على وجه التحديد كانت من نصيب بني إسرائيل؟ ثم، ألا ترى أن الزروع كانت من نصيب القوم الآخرين؟ ثم ألا ترى أن الجهتين قد تشاركوا في الجنات والعيون والمقام الكريم؟

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من ذلك؟

رأينا المفترى: لقد كان أكثر ما يميّز حكم فرعون هو كثرة الكنوز (انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة موسى). فما أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون حتى آلت معظم كنوز فرعون مباشرة إلى يد بني إسرائيل. فأصابهم الغني العظيم بما وقعت أيديهم عليه من كنوز فرعون. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن جزءً من بني إسرائيل قد آثر العودة لوراثة الأرض وعدم المضي قدمًا في متابعة المسير مع موسى نحو الأرض المقدسة هي تلك الكنوز التي يعرفونها ويريدون حيازتها بعد هلاك فرعون وجنوده. فكان بنو إسرائيل على مرّ التاريخ هم المتحكمين بمعظم ثروات الأرض المالية (خاصة الذهب). فمن أين تأتى لبني إسرائيل تلك الثروة العظيمة؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن سبب ثراء بني إسرائيل على مر التاريخ هو حيازتهم على كنوز فرعون. انتهى.

لكن كان بنو إسرائيل الذين أصبحوا أثرياء جدًا (بما حطت أيديهم عليه من كنوز فرعون) بحاجة إلى اليد العاملة في الأرض، لتزرعها ويستفيدوا بالتالي من زروعها كجنات ومقام كريم:

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 57-60]

فكانوا إذًا بحاجة (بكلمات بسيطة) إلى اليد العاملة التي تقوم على زراعة الأرض (الزروع) حتى تبقى جنات وافرة الطيبات ومقام كريم لهم من بعد هلاك فرعون. فما كان هناك بدّ إلا أن يسمحوا لليد العاملة أن تشاركهم تلك الأرض، فيكونوا هم الطبقة البرجوازية التي تعمل لها تلك الطبقة العاملة. فعاشوا فيها كقوم آخرين، أي غير بني إسرائيل.

ولا شك عندنا – على غير ما يظن الغالبية الساحقة من أعداء بني إسرائيل- أن أكثر ما يميز بني إسرائيل هو سخاء اليد (الكرم). فهم لا يبخلون في الإنفاق على الطبقة التي تعمل لهم وتقوم على رعاية مصالحهم. فهم أصحاب المال وملكية العقار تعود لهم، فيكسبون الكثير، لكنهم يدفعون بسخاء لكل من يعمل عندهم ويخدم مصالحهم. فبرزت في تلك الأرض الطبقة البرجوازية (القليلة) من بني إسرائيل، وجلبت إليها (لخدمة مصالحها) طبقة كبيرة جدًا من العمال، تقوم على رعاية مصالح الطبقة البرجوازية من بني إسرائيل، فأنفقت عليها بسخاء. فكان الطرفان مستفيدان من هذه الشراكة في أرض مصر. فاستمرت أرض مصر جنات وعيون وزروع ومقام كريم لبني إسرائيل وللطبقة العاملة التي تشاطرهم السكن في تلك الأرض، بينما كانت الكنوز العظيمة في يد الفئة التي استولت على كنوز فرعون في سابق الزمان.

وقد كانت أول ثمار تلك العلاقة التشاركية المبنية على المنفعة المتبادلة نشوء حضارة عملاقة هي حضارة سبأ. فكانوا أولو قوة وأولو بأس شديد:

- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ [النمل: 32-33]

ولكن كانت ذروة تلك الحضارة تتمثل بعدم وجود المَلِك. فما كان فيها ملك يحكم، ولكن كانت فيهم امرأة تملكهم:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: 23]

ولعل أبسط ما يمكن أن نستنبطه من ذلك عن تلك الحقبة التاريخية أمران اثنان، وهما:

⇐ الانفتاح الفكري عند القوم لدرجة أنهم كانوا راضين بملك امرأة (وليس رجل) لهم
⇐ الرقي العلمي الذي يمثله وجود العرش عندها

السؤال: كيف تحصل لهم هذا الرقي الفكري من جهة والتقدم العلمي من جهة أخرى؟

الباب الأول: الرقي الفكري

لعل من أهم سمات المجتمع الذي تسود فيه ثقافة بني إسرائيل هو الانفتاح الفكري خاصة بما يتعلق بحقوق المرأة وحقوق المثليين والدعوة إلى الرفق بالحيوان والطبيعة، الخ. كما لا ننسى أن بني إسرائيل لا يفضّلون العيش في دولة مستقلة خاصة بهم إلا في الأرض المقدسة. فما عمد بنو إسرائيل على مرّ التاريخ إلى إنشاء دولة خاصة بهم في أي مكان على الأرض باستثناء الأرض المقدسة. فتواجد بني إسرائيل في أي مكان على الأرض يظهر سيطرتهم على الجانب العلمي والمالي فيها. فهم صناع العلم بلا منازع، وهم المسيطرون على رأس المال بلا شك. ولتحقيق هذين الهدفين معًا، ما كان لهم من سبيل إلى ذلك إلا بالانفتاح الفكري والرقي العلمي. فكيف تحصلوا على ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان بنو إسرائيل علماء، كان بين أيديهم أدوات ذلك العلم (الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ).

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]

فكانوا هم العلماء بما لديهم من تلك الكنوز العلمية العظيمة:

- ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197]

لكن ذلك لم يكن ليسبب فيهم إلا الاختلاف:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ [الجاثية: 16-17]

وسنتحدث عن توابع اختلافاتهم فيما بينهم بعد قليل بحول الله وتوفيق منه. لكن دعنا ندقق الآن فيما تحصل لهم من الرقي العلمي في تلك الفترة من الزمن.

الباب الثاني: الرقي العلمي: الحديد (عصر الحديد)

لو دققنا مليّا في تلك الحقبة التاريخية على وجه التحديد، لوجدنا بأنها هي الفترة ذاتها التي كان داوود متواجدًا في طرف آخر من الأرض:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: 10-11]

فلقد تزامنت حضارة سبأ (في مصر التاريخية) في الجنوب الغربي مع الحضارة التي كانت ناشئة حينئذ في زمن داوود وولده سليمان في الشمال الشرقي. ولعل أبسط ما يمكن أن نفتريه هنا هو أن الله قد آلان الحديد لداوود، أليس كذلك؟

ولو تفقدنا ما قاله قوم تلك المرأة التي كانت صاحبة الأمر في سبأ، لوجدنا قولهم على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ [النمل: 33]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن القوم كانوا أولي بأس شديد؟ فما الذي جعل لهم بأسًا شديدًا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن البأس الشديد يختلف عن القوة، بدليل قولهم (نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)، فالقوة شيء والبأس الشديد شيء آخر. لكن ما نود قوله هنا هو أن البأس الشديد مصدره شيء واحد، ألا وهو الحديد:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]

نتيجة مفتراة مهمة جدًا: الحديد هو مصدر البأس الشديد. انتهى.

فتلك الفترة الزمنية هي فترة الحديد. وهو ما يسمى بمفرداتنا العلمية الحديثة "العصر الحديدي". فلقد جرت عادة أهل العلم على توصيف الحقبات التاريخية المتعاقبة بتقسيمها إلى عصور، فذكروا العصر الحجري والعصر الحديدي والعصر البرونزي والعصر الذهبي، وهكذا. ليكون السؤال الآن هو ما هي تلك العصور؟ ولماذا سميت بتلك المسيميات؟ ولم لا نجد مثلًا العصر الفضي أو العصر النحاسي؟

باب تسمية العصور: العصر الحجري والعصر الذهبي والعصر الحديدي

دعنا نبدأ بما عند أهل العلم عن هذه العصور. فقد وجدنا في بحثنا في هذا السؤال الرابط البسيط التالي الذي يختصر الفكرة بطريقة سهلة للقارئ العادي من مثلي

- يمكن تعريف العصور التاريخية بأنّها مجموعة من الأحقاب الزمنية التي مرّت في تاريخ البشرية منذ لحظة وجود الإنسان على الأرض حتّى الوقت الحالي، حيث إنّ العصر هو فترة من الزمن في التاريخ يتم تصنيفها بواسطة عوامل ثقافية أو تاريخية، وذلك بهدف تسهيل دراسة وتحليل التاريخ، وعلى الرّغم من إشكالية اتفاق المؤرخين حول الأسس التي يجب أن يتم بناءً عليها تعريف العصور التاريخية، إضافة إلى عدم دقّة بعض من التصنيفات، وصعوبة تحديد فترة بداية أو نهاية كل عصر أو حقبة بشكل محدد، إلا أنه يظل من العسير دراسة التاريخ الماضي دونها، حيث سيظهر كما لو كان عبارة عن أحداث مبعثرة لا رابط بينه

Source

ليكون السؤال الآن هو: لماذا تسمى هذه العصور بهذه التسميات؟ وكيف يمكن أن نقف على ترتيبها الصحيح؟ ومتى حصلت في التاريخ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال بسيطة، تتمثل بأن أي عصر من تلك العصور (الحقبات التاريخية) قد سمي بتلك التسمية لأن القوم حينئذ (نحن نرى) قد برعوا في تكنولوجيا تلك المادة. فالعصر الحجري هو – برأينا – الحقبة الزمنية التي برعت فيها حضارة استخدام الحجر وتسخيره بأعلى درجات الاتقان والمهارة، وذلك هو برأينا عصر ثمود الذين جابوا الصخر بالواد:

- ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]

ولو حاولنا أن نعكس ذلك على أرض الواقع، لوجدنا بأن ذلك الواد (الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) هو واد النيل، وما زال ذلك الواد يزخر بأعظم آثار الارض من روائع فن الحجر. ولعل منطقة الأقصر في جنوب مصر (الحديثة) وشمال السودان ما زالت شاهدة على فن العمارة بالحجر التي لا يمكن لأي حضارة أخرى أن تضاهيها في تكنولوجيا الحجر. وقد امتدت حضارتهم إلى المناطق المجاورة في شمال الجزيرة العربية وجنوب بلاد الشام (كبتراء الأردن)، فالعصر الحجري هو إذا عصر ثمود.

أما العصر الحديدي، فهو لا شك عصر داوود (وسبأ)، فما برعت حضارة في تسخير معدن الحديد كما فعل داوود وسبأ (وهما لا شك متزامنين) – وسنتعرض بعد قليل بإذن الله إلى الترابط الزمني بين داوود من جهة وسبأ من جهة أخرى.

أما العصر الذهبي فهو لا شك عصر فرعون، فحضارة فرعون هي حضارة الكنوز من الذهب والفضة، ولا ننسى رفيق دربه قارون:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: 76]

بينما كانت عاد هي الحضارة الأقدم التي برعت في تكنولوجيا الطاقة التي ولدتها بالأهرامات:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: 6-8]

(للتفصيل انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في مقالاتنا تحت عنوان قصة يونس)

فيصبح ترتيب الحقبات الزمنية إلى عصور على النحو التالي:

⇐ عاد (عصر الطاقة)
⇐ ثمود (العصر الحجري)
⇐ فرعون (العصر الذهبي)
⇐ داوود (وسبأ) العصر الحديدي

وهذا يدعونا إلى تأكيد ظننا الذي ما فتئنا نردده في أكثر من مكان بأن العلم يتراجع مع تقدم الزمان ولا يتقدم، بدليل قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم: 9]

فحضارة عاد (الأقدم) هي التي لم يخلق مثلها في البلاد:

- ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر: 8-10]

فيصبح تدرج القوة في الحضارة على هذا النحو:

عاد -- ثمود – فرعون -- سبأ

إن ما يهمنا طرحه هنا هو الافتراء التالي: كانت حضارة سبأ هي الحضارة التي برعت في صنع الحديد (ألنا له الحديد).

السؤال: من أين استمد قوم تلك المرأة في سبأ تكنولوجيا الحديد؟

رأينا المفترى: من داوود؟

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: من خلال العرش.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو رجعنا إلى قصة داوود كما بينها كتاب الله الكريم، لوجدنا أن أول ذِكر لداوود قد جاء في قصة الصراع الذي دار بين طالوت (المؤمن) وجالوت (الكافر)، فلقد كان داوود فردًا في جيش طالوت، وكان ظهور داوود بسبب أنه كان هو (وليس طالوت) من قتل جالوت، وكان ذلك سببًا في هزيمة جالوت وجنوده، قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

لقد كان الصراع إذًا بين قوتين كبيرتين، فئة قليلة مؤمنة تقاتل فئة كثيرة كافرة:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]

ليكون السؤال الحتمي الآن هو: ما دام أن جيش طالوت القليل هو من حقق النصر، ومادام أن تلك المعركة قد نشبت أساسًا بين الفئتين من أجل إعادة بني إسرائيل إلى الأرض التي أخرجوا منها:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

وما دام أنهم قد عادوا إليها (نحن نتخيل) بعد ذلك النصر المؤزر، فأين ذهبت فلول جيش جالوت؟

افتراء خطير جدًا جدًا (لا تصدقوه إن شئتم): لقد هربت فلول جيش طالوت (القوم الجبارين) إلى سبأ. وهناك أنشأءوا حضارتهم بعيدًا عن داوود من جهة وبعيدًا عن الأرض المقدسة من جهة أخرى. والأن لنقرأ قصة سبأ من هذا المنظور من جديد، قال تعالى:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 15-18]

انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في هذا السياق القرآني، ولكن اجعل تركيزك الآن منصبًا على الآية الكريمة الأخيرة في هذا السياق القرآني، وهي قوله تعالى:

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 18]

ليكون السؤال الآن هو: ما سرّ الربط بين سبأ من جهة والقرى التي باركنا فيها من جهة ؟

رأينا المفترى: إن ما نود طرحه هنا هو الافتراء التالي: في تلك الحقبة الزمنية، بعد هزيمة جالوت وجنوده، تشكلت قرى ظاهرة بين القرى التي باركنا فيها في الشمال الشرقي من جهة وسبأ في الجنوب الغربي من جهة أخرى. ونحن نفتري القظن من عند أنفسنا أنه في تلك الفترة الزمنية كان توزيع الحضارات على النحو التالي:

⇐ قرى باركنا فيها، وهي القرى التي تكونت في الأرض المباركة وما حولها في الشمال والشمال الشرقي (منطقة بلاد الشام والعراق وشمال الجزيرة العربية وشرقها)
⇐ قرى ظاهرة في الوسط (مصر الحديثة حتى الخرطوم)
⇐ سبأ في الجنوب والجنوب الغربي (الخرطوم وجنوب السودان إلى أعالي النيل في الحبشة).

فكانت القرى المؤمنة في الشمال (في الأرض المقدسة التي عاد إليها بنو إسرائيل تحت قيادة طالوت وكذلك في العراق والشام والجزيرة العربية حتى الهند تحت قيادة داوود وريث طالوت الملك):

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 81]

بينما كانت القرى الظاهرة في الوسط وهي قرى كافرة نشأت بفلول جيش طالوت الذي اندحر من الأرض المقدسة بعد هزيمته على يد طالوت، ثم سبأ في الجنوب.

السؤال: ما هي القرى الظاهرة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن تلك القرى هي عبارة عن دويلات متقاتلة فيما بينها، وكانت الغاية من تقاتلهم فيما بينهم (نحن نظن) بهدف إنشاء إمبراطورية عظيمة على يد الغالب منهم. لكن كانت حضارة سبأ في الجنوب قد وصلت أوج قوتها أيام تلك المرأة التي كان لها عرش عظيم:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: 23]

وقد كان قومها أولوا بأس شديد، فما كانت تلك القرى الظاهرة تستطيع الوصول إليهم، بدليل قول قوم المرأة عندما طلبت مشورتهم:

- ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: 32-33]

وفي تلك الأثناء، توفي داوود، وآل الحكم إلى ولده سليمان:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

فحشر له جنوده من الجن والإنس والطير:

- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: 17]

ولم يكن سليمان حتى اللحظة على دراية بأمر تلك المرأة وقومها في سبأ حتى كشفهم له الهدهد:

- ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: 22]

وكان النبأ اليقين الذي جاء به الهدهد سليمان على النحو التالي:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: 23-26]

وفي تلك اللحظة، طلب سليمان ممن كان حاضرًا عنده أن يأتوه بعرشها قبل أن يأتوه مسلمين:

- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: 38]

وبالفعل أُحضر العرش لسليمان بواسطة من كان عنده علم من الكتاب:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]

وجاءت المرأة سليمان، وجاء قومها معها، وكانت النتيجة دخولهم في الإسلام مع سليمان لله رب العالمين:

- ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ [النمل: 44]

فعاد الإسلام إلى تلك المنطقة كلّها، وعادت ذرية بني إسرائيل المتواجدين هناك إلى الإسلام. وكانت أول ثمار ذلك العمل العظيم هو حنين بني إسرائيل من جديد إلى الوصول إلى الأرض المقدسة لـ اللحاق بركب من كان قد سبقهم إليها في زمن نبي الله موسى ونبي لهم من بعد موسى بعد ذلك.

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

وكان شعورهم بالحنين بالعودة إلى الأرض المقدسة هذا مدفوعا (نحن نفتري القول) بما وصلهم من جديد من تلك الأسفار العظيمة التي جُلبت إليهم في زمن نبي الله سليمان. انتهى.

فتصبح قصة بني إسرائيل في الأرض المقدسة (كما هي في مخيالنا) على النحو التالي:

⇐ بدأت قصة تواجد بني إسرائيل في الأرض المقدسة مع إبراهيم يوم أن نجّاه الله ولوطًا إلى الأرض المباركة للعالمين:

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: 71]

⇐ استمر تواجدهم فيها في زمن نبي الله يعقوب

⇐ انتقل يعقوب وجميع ذريته إلى أرض مصر يوم أن كان يوسف عزيزها

- ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرٗا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف: 93]

⇐ استمر تواجد بني إسرائيل في أرض مصر في زمن الملوك حتى حصل الإنقلاب الفرعوني، وأصبحت مصر فرعونية

⇐ ذاق بنو إسرائيل الأذى والعذاب تحت الحكم الفرعوني

⇐ جاء موسى برسالة من الله إلى فرعون، طالبًا منه أن يرسل معه بني إسرائيل:

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

⇐ كان ذلك اعترافًا من موسى بأحقية فرعون وقومه بملك مصر، وبأحقية بني إسرائيل بالعودة إلى الأرض المقدسة

⇐ رفض فرعون دعوة موسى هذه، فحصل العقاب الإلهي له ولجنوده

⇐ خرج بنو إسرائيل من تحت القبضة الفرعونية بعد أن جاوز الله بهم البحر وأغرق عدوهم، لأن ما فعله فرعون كان بغيًا وعدْوًا

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: 90]

⇐ استمر فريق من بني إسرائيل في رحلتهم مع موسى باتجاه الأرض المقدسة، لكن آثر فريق آخر منهم العودة لوراثة ما كان لفرعون وقومه، فاستولوا على كنوزهم وأورثهم الله أرضهم وديارهم:

- ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: 57-59]

(ملاحظة: وربما كان جزء منهم متواجدا فيها حتى بعد خروج بني إسرائيل مع موسى وخاصة من كانوا مقربين من فرعون وملئه، وقد أرسل لي بعض المتابعين اليوم وأنا بصدد نشر المقالة على موقع سؤال وجواب مفترى فيديو قصير يتحدث فيه الاستاذ بسام جرار عن هذه الجزئية، وأظن أن فيه كثير من الصحة، فيرجى من المهتمين الاطلاع على رأي الأستاذ جرار في هذا الموضوع)

⇐ لم يتقبل بنو اسرائيل دعوة موسى دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم عندما وصلوا إلى أبوابها، وذلك لوجود القوم الجبارين فيها:

- ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 21-24]

⇐ دعا موسى ربه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين (أي الذين رفضوا الأمر)، فحرّمها الله عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 25-26]

⇐ عاد بنو إسرائيل من التيه يهودًا:

- ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 155-156]

⇐ تم إخراج بني إسرائيل مرة أخرى من ديارهم على يد جالوت وجنوده، فطلبوا من نبي لهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا حتى يعودوا إليها:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

⇐ عاد بنو إسرائيل إلى الأرض المقدسة على يد طالوت، زمن نبي لهم من بعد موسى.
⇐ لم يكن ذلك النبي من بني إسرائيل وإنما كان نبيًا لهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى)، وكان ذلك النبي هو والد داوود. وقد افترينا الظن في مقالات سابقة لنا بأنه هو نبي الله لقمان نفسه.
⇐ كان داوود ولد نبي الله لقمان، فما كان من بني إسرائيل
⇐ آل الحكم إلى داوود من بعد طالوت فكان خليفة في الأرض (وليس فقط في الأرض المقدسة)
⇐ آل الحكم من بعد داوود إلى ولده سليمان (فما كان من بني إسرائيل) بدليل أن الله قد سخر له الريح تجري إلى الأرض التي باركنا فيها

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 81]

لذا، فذرية لقمان (داوود وسليمان ليسوا من بني إسرائيل، وهذا ما يؤكده الفكر التوراتي ذاته)

⇐ كان مركز ملك سليمان هو منطقة الخليج العربي وبلاد فارس والهند.
⇐ كانت سبأ في السودان وأعالي النيل
⇐ ظل بنو إسرائيل متواجدين في الأرض المقدسة حتى مجيء المسيح عيسى بن مريم

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

⇐ الخ

خروج عن النص

سنخرج في استراحة قصيرة عن قصة سبأ ثم نعود إليها بحول الله وتوفيق منه بعد أن نحاول تسليط الضوء على قضية محورية في الفكر العالمي، ألا وهي قضية أحقية بني إسرائيل بوراثة الأرض المقدسة، لنطرح السؤال على النحو التالي: هل لبني إسرائيل أحقية تاريخية دينية شرعية في وراثة الأرض المقدسة (كما يدعون)؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا (لا تصدقوه إن شئتم): نعم، لبني إسرائيل أحقية تاريخية دينية شرعية في وراثة الأرض المقدسة، قال تعالى على لسان نبيه موسى:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

بدايةً، أرجو أن لا يتصيّد المعارضون لفكرنا هذه العبارة، فيخرجونها من سياقها، ليروج كل منهم إلى ما يريد. فقد يقتص كثير من بني إسرائيل والمؤيدين لفكرهم هذه العبارة من سياقها، ليقولوا بأننا نثبت لهم أحقيتهم في أرض الميعاد دون قيد ولا شرط. وقد يقتص المخالفون لفكرنا من أبناء الإسلام هذه العبارة من سياقها، ليثبتوا جاسوسيتنا وعمالتنا للغرب وعدائنا لحضارتهم العظيمة. فدعني أذكر الطرفين بأن من أدب النقل أن لا يجتزء الكلام من سياقه، لأننا سنطرح فكرًا نظنه جديدًا لن يرضي أيًّا منكما مهما كان فكره الذي يستند إليه وأيديولوجيته التي يحاول تسويقها بين العالمين. فنحن نوجه الرسالة واضحة وجليّة للطرفين بأن الحق أحق أن يقال ويتبع بغض النظر عن مآربك الشخصية وغايتك التي تخدم مصالحك على حساب الآخرين. فمنهجنا في البحث هو قول الحق (كما نراه طبعًا) بغض النظر عن أهداف الجميع وغاياتهم، فنحن مستعدون أن نقول رأينا حتى لو أغضب العالمين أجمعين، فلسان حالنا لا يتعدى ما قاله نبي الله موسى لفرعون:

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

نعم، هذا هو المنهج السليم، فحقيق علينا جيمعًا أن لا نقول على الله إلا الحق، شاء من شاء، وغضب من غضب. سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزيدنا علمًا وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدًا، والله خير حفظًا وهو أرحم الراحمين.

أما بعد،

نعم، نحن لا نستطيع أن ننكر أحقية بني إسرائيل في وراثة الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، ونحن نقرأ في كتابنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قوله تعالى على لسان نبيه موسى:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

لكن، لابد مع إيماننا هذا أن نطرح التساؤل التالي: هل دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة التي كتب الله لهم غير مشروطة دون قيد ولا شرط؟ فهل يدخلوها متى شاءوا ويخرجوا منها متى ما أرادوا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فنحن نرى أن لبني إسرائيل أحقية في الأرض المقدسة شريطة أن يدخلوها بطريقة شرعية وبإذن إلهي. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا السؤال، لابد أن نطرح التساؤل التالي: ألم يكن بنو إسرائيل يسكنون الأرض المقدسة عندما جاء عيسى ابن مريم رسولًا من الله إليهم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: 6]

السؤال المحوري: لماذا خسر بنو إسرائيل الأرض المقدسة من بعد عيسى؟ هل حصلت حرب عليهم وأخرجوا منها عنّوة؟

رأينا المفترى: نحن لا نجد في صفحات كتب التاريخ أن قومًا آخرين قد أخرجوا بني إسرائيل من الأرض المقدسة عنّوة من بعد نبي الله عيسى بن مريم. وحتى عندما دخل المسلمون القدس زمن الخليفة عمر بن الخطاب، كان سكان تلك الأرض من المسيحيين (وليس من اليهود). ولا نجد في صفحات التاريخ أن المسيحيين (من قبل) قد أخرجوا اليهود من الأرض المقدسة بالسيف.

ليكون السؤال الآن: لماذا خسر بنو إسرائيل وراثة الأرض المقدسة من بعد عيسى بالرغم أننا لا نجد أن أحدًا قد استخدم السلاح لإخراجهم منها بالقوة؟

إن مراد قولنا هو أنه لا المسيحيين أجبروا اليهود على الخروج من الأرض المقدسة بالسيف، ولا المسلمين استلموها منهم (من اليهود). فالسؤال مرة أخرى هو: ما سبب خسارة بني إسرائيل للأرض المقدسة من بعد عيسى بالرغم أنهم كانوا متواجدين فيها بكل قوة حينئذ. فعيسى بن مريم هو رسول الله لهم (وإن لم يكن منهم)؟

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: 6]

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن هناك طريقة شرعية وحيدة لدخول بني إسرائيل الأرض المقدسة، وهناك – بالمقابل- سبب وجيه يجعل بني إسرائيل يخسروا حيازة الأرض المقدسة حتى بدون قتال. وبالمنطق ذاته، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه لا أحقية لبني إسرائيل في الأرض المقدسة إن لم يحوزوا عليها بطريقة شرعية وبإذن إلهي. انتهى.

السؤال: ما هي الطريقة الشرعية التي تؤهل بني إسرائيل لحيازة الأرض المقدسة؟ وما الذي يجعل بني إسرائيل يخسرون الأرض المقدسة حتى بدون قتال (كما حصل من بعد عيسى بن مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أن لبني إسرائيل الحق في وراثة الأرض المقدسة شريطة أن يدخلوها من الباب. انتهى.

السؤال: وكيف سيدخلوها من الباب؟ وهل للأرض المقدسة باب أصلا يمكن لهم أن يدخلوها من خلاله؟

رأينا المفترى: نعم.

السؤال: وأين هو ذلك الباب؟

رأينا المفترى: قبل أن أدلكم على ذلك الباب (إن أذن الله لنا بذلك)، علينا أن نفهم ابتداءً أن الباب (أي باب) لا يمكن دخوله إلا أن يفتح أولًا. فأنت لا تستطيع دخول بيتك – مثلًا- إن كان الباب مغلقًا. فلكي تدخل بيتك عليك أن تفتح الباب أولًا، أليس كذلك؟

سؤال: وكيف يمكن أن افتح الباب؟

رأينا لمفترى: وهل يفتح الباب بغير مفتاحه؟ أليس لكل باب مفتاح؟ فهل استطيع أن افتح باب بيتك بمفتاح باب بيتي؟ من يدري؟

جواب مفترى: نعم، لكل باب مفتاح خاص به، ولا يمكن فتح الباب (أي باب) إلا بذلك المفتاح الخاص به. لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن من عند أنفسنا بأن للأرض المقدسة باب، ولذلك الباب مفتاح، ولا يمكن أن تدخل المكان بطريقة شرعية بغير ذلك المفتاح الذي يفتح ذلك الباب.

وفي هذا الصدد، دعنا نوجّه رسالتنا القصيرة الأولى إلى بني إسرائيل على النحو البسيط التالي: نحن لا ننكر أحقيتكم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لكم شريطة أن تدخلوها من بابها، ولن تستطيعوا فتح ذلك الباب مادمتم لا تحوزون على مفتاحه. وإذا دخلتم الأرض المقدسة من غير بابها لأنكم لا تحوزون على ذلك المفتاح، فأنتم إذًا قد دخلتموها بطريقة غير شرعية، فتسلقتم جدرانها كاللصوص، وسطوتم على حق غيركم لأن الله لم يأذن لكم بعد بدخولها بطريقة شرعية. انتهى.

السؤال: وما هو مفتاح باب الأرض المقدسة (إن صح ما تزعم)؟ يسأل صاحبنا مستغربًا ومتعجلًا الإجابة.

رأينا المفترى الأخطر على الإطلاق: نحن نظن بأن مفتاح باب الأرض المقدسة الذي يمكّن بني إسرائيل من دخولها بطريقة شرعية هو "التابوت" – تابوت العهد القديم الذي يعرفون مكانته في كتبهم خاصة في التوراة التي فيها هدى ونور. انتهى.

الدليل

من أجل جلب الدليل على افترائنا هذا الذي هو لا شك – عند الكثيرين- أغرب من الخيال نفسه، علينا أن نعود إلى جميع المرات التي دخل فيها بنو إسرائيل الأرض المقدسة بطريقة شرعية وبإذن إلهي.

أولًا، كانت المحاولة الأولى لبني إسرائيل دخول الأرض المقدسة بطريقة شرعية وبإذن إلهي قد حصلت بعد أن خرج موسى بهم من مصر بعد هلاك فرعون ونجاتهم من تحت قبضته. فوصلوا إلى حدودها بعد رحلة طويلة وشاقة تخللتها أحداث جسام، وهناك كانت دعوة موسى لهم على النحو التالي:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

وفي هذه المرة رفض بنو اسرائيل جميعًا (باستثناء رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهم) دعوة موسى تلك:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

إذن، هذا موسى يطلب من بني إسرائيل الذين تابعوا الرحلة معه إلى مشارف الأرض المقدسة أن يدخلوا الأرض المقدسة بالرغم من وجود القوم الجبارين فيها. وهذا موسى موقن تماما بأنهم لا محالة غالبون. فيستحيل (نحن نظن) أن يلقي موسى ببني إسرائيل الخارجين للتو من عذاب فرعون ليلقي بهم لقمة سائغة في فم القوم الجبارين، أليس كذلك؟ فكيف به يطلب منهم أن يدخلوها على القوم الجبارين إن لم يكن يعلم يقينا أنهم لا محالة غالبون؟ لكن، انظر عزيزي القارئ – إن شئت- كيف رد القوم على طلب موسى ذاك؟

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

جواب مفترى: لأنهم سيدخلوها من الباب. فنحن نظن بأن موسى يعلم أن دخلوهم الأرض المقدسة من الباب سيكون دخولًا مشروعًا، وسيكون النصر الإلهي لهم مؤزرًا. انتهى

السؤال: وأين الباب في كلام موسى؟ فموسى لم يطلب منهم أن يدخلوها من الباب، وجلّ ما طلبه هو أن يدخلوها وكفى؟ ألا ترى أنك تفتري على الله وعلى رسوله الكذب؟ يسأل صاحبنا مقاطعًا الكلام بلا تردد.

رأينا المفترى: صحيح أن موسى لم يطلب منهم دخولهم على القوم الجبارين من الباب، وصحيح أنه قد طلب منهم الدخول فقط، وصحيح أن كلام موسى يخلو من مفردة الباب. لكن ما رأيك - عزيزي المجادل - أن نكمل قراءة السياق ذاته، لتجد أن هناك من وافق موسى على دخول الأرض المقدسة، ويعلم أن ذلك لا يتم إلا من خلال الباب. فانظر - يرحمك الله - فيما قاله الرجلان اللذان يخافان أنعم الله عليهما، وهما فقط (نحن نظن) من التقطا رسالة موسى بشكل صحيح:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

والآن، ما رأيك عزيزي القارئ المجادل بما قاله هذان الرجلان وهم لا شك من الذين يخافون أنعم الله عليهما؟ ألم يطلبا من القوم أن يدخلوا على القوم الجبارين من الباب؟ وماذا ستكون النتيجة لو أن القوم فعلوا ما قاله هذان الرجلان؟ ألن تكون النتيجة أن الغلبة – لا محالة- لبني إسرائيل بالرغم أن أولئك القوم جبارين؟ ألن يكون نصرهم على القوم الجبارين حينئذ بتأييد إلهي؟ ثم ألن يكون دخولهم الأرض المقدسة من الباب شرعيًا لا يستطيع أحد أن ينازعهم فيه؟ من يدري؟!

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدًا جدًا: إذا دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة من الباب فلا قوة على الأرض مهما عظمت ستغلبهم. انتهى.

السؤال: وكيف سيدخل بنو إسرائيل من الباب؟

رأينا المفترى: حتى يتمكن بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة من الباب، فلابد من وجود مفتاح ذلك الباب بأيديهم. انتهى.

السؤال مرة أخرى: وما هو مفتاح ذلك الباب؟

جوابنا المفترى ذاته مرة أخرى: إنه التابوت – تابوت العهد القديم الذي تحمله الملائكة. وقد افترينا الظن في مقالات سابقة لنا تحت عنوان فقه الحج بأن التابوت (الذي كانت تحمله الملائكة) هو الذي كان يخط سير رحلة بني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: إذا حاز بنو إسرائيل على مفتاح الأرض المقدسة - وهو التابوت، فسيكون دخولهم شرعي قد أذن الله به، ولا قوة على وجه الأرض مهما عظمت ستقف في وجوههم. انتهى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدًا: إذا أضاع بنو إسرائيل مفتاح الأرض المقدسة - وهو التابوت، فسيخسرون الأرض المقدسة دون قتال خارجي عليهم (كما حصل لهم – نحن نتخيل – بعد عيسى بن مريم)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدًا: لا يستطيع بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة من جديد (إذا خرجوا منه) بطريقة شرعية إلا إذا تقدمهم التابوت (مفتاح باب الأرض المقدسة)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدًا: إذا أضاع بنو إسرائيل مفتاح الأرض المقدسة،، تاهوا وتشتتوا في الأرض، ولن يستطيعوا دخولها بطريقة شرعية من جديد إلا بحيازة ذلك المفتاح من جديد. انتهى.

تلخيص ما سبق: إن الدعوة التي نطلقها لكل مؤمن من بني إسرائيل بأحقيته في وراثة الأرض المقدسة على النحو التالي: عزيزي المؤمن من بني إسرائيل عليك أن تدخل أرضك بطريقة شرعية من بابها، وحتى تدخلها كذلك، وحتى أعترف لك – شخصيًا- بحقك الديني التاريخي بهذه الأرض، فهات مفتاح باب الأرض المقدسة، ألا وهو تابوت العهد القديم الذي تفهم أنت وحدك أهميته في تاريخك وشريعتك حق المعرفة. وفي الوقت ذاته فإني شخصيًا أوجه لك الرسالة واضحة جلية بأن دخولك الأرض المقدسة من غير الباب وبدون ذلك المفتاح لا شرعية فيه اطلاقًا، لأن الله لم ياذن لك بعد دخولك تلك الأرض وحيازتها ما دام أنه لم يؤتيك مفتاحها. بل على العكس فإن دخولك الأرض من غير بابها وبدون مفتاح ذلك الباب هو انتحار لا أرضاه لك حتى وإن كنت على ملّة غير ملتي. فدعني أنصحك صادقًا بأن هؤلاء الساسة (من

بني جلدتك ومن غيرهم) الذين سهلوا لك دخول الأرض المقدسة هم يأخذونك بذلك إلى مصير مجهول لا أرضاه (أنا شخصيًا) لك. فأنت شخص مؤمن برسالة موسى ومؤمن قبل ذلك بأن دخولك الأرض المقدسة هو وعد إلهي لك، فلا تنقض ميثاقك الذي واثقته على نفسك مع ربك، فتكون من الخاسرين. وبالنهاية، زي ما بدك، أنت حر.

أما الدعوة التي أطلقها من هنا – بالمقابل – إلى كل العقلاء من بني الإسلام فهي كذلك بسيطة وجلية على النحو التالي: لا يمكن أن تدحض عزيزي المسلم دعوى الآخر بالترهات والأكاذيب والمنطق الشيطاني المفبرك. فعليك أن تؤمن إيمانًا مطلقًا بكل آية وردت في كتاب ربك الكريم، الذي يبين بشكل لا لبس فيه أحقية بني إسرائيل بوراثة الأرض المقدسة التي كتبها لهم كما جاء على لسان نبي الله موسى في كتابك الكريم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

فهل هناك – عزيزي المؤمن بكتاب ربك- كلام أوضح من هذا الكلام القاطع الذي لا لبس فيه؟ أليس من الأحقية الدينية لبني إسرائيل وراثة الأرض المقدسة؟ لكن عليك أن تبين للجميع بأن هذه وراثة الأرض المقدسة ليست مفتوحة على الغارب لهم، فقط اطلب من بني إسرائيل (المؤمنين بحقهم في ذلك) أن يكون دخلوهم الأرض المقدسة شرعيًا متى ما أذن الله لهم بذلك. وعليك أن تتيقن بأنه لا يمكن أن يتم الإذن الإلهي لهم بذلك إلا بآية من ربهم، وهي حيازة مفتاح الأرض المقدسة، ودخولها بالتالي من الباب. فالجعجعة – عزيزي المسلم- لن تجد نفعًا مع علماء بني إسرائيل. ولكن المجادلة الحسنة بالحجة والبرهان هي ما ستخرسهم لأن ذلك هو الحق من ربنا جميعًا. فعلينا جميعًا (نحن وهم) أن يكون منهجنا هو ما قاله موسى:

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

فموسى قد اعترف لفرعون وقومه بأحقيتهم في وراثة أرض مصر. وهو من طلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ليعيدهم إلى الأرض المقدسة التي هي حق لهم. وعندما رفض فرعون دعوة موسى (وهي الحق الذي لا جدال فيه)، كانت نهايته وخيمه. ونحن نقول لكل مسلم بأنك إذا لم تعترف بأحقية بني إسرائيل بوراثة الأرض المقدسة بطريقة شرعية (عندما يدخلوها من الباب ويستخدمون مفتاح ذلك الباب)، لن تكون نهايتك أقل سوءًا ولا عذابًا من نهاية فرعون وقومه. انتهى.

السؤال: أين الدليل على أن مفتاح الأرض المقدسة هو التابوت؟

رأينا المفترى: دعنا نعود إلى محاولة بني إسرائيل الأولى دخول الأرض المقدسة عندما طلب منهم نبيهم موسى ذلك؟

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

السؤال: لماذا رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة بالرغم أن موسى هو من طلب منهم ذلك؟

رأينا المفترى: لقد كان الذي يمنعهم دخولها هو وجود القوم الجبارين فيها:

- ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

السؤال: هل نزل بنو إسرائيل عند قول الرجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهم عندما طلبوا منهم دخولها من الباب وأكدا لهم الغلبة على القوم الجبارين إن هم فعلوا؟

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فقد قطعا القول نهائيا برفضهم دخولها:

- ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

السؤال: لماذا رفض قوم موسى (بنو إسرائيل) دخولها أبدًا مادام القوم الجبارين فيها؟ والأهم من ذلك لماذا طلبوا من موسى أن يذهب هو وربه فيقاتلا ليبقوا هم هناك قاعدون (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ)؟

رأينا المفترى: قد يظن القارئ للنص القرآني للوهلة الأولى (ربما مدفوعًا بتفسيرات أهل الدراية من قبل) أن بني إسرائيل قوم يميزهم الجبن، أليس كذلك؟ أليس هذا ما درسونا إياه من كتب السلف العظيم؟

رأينا المفترى: دعنا نخالف أهل الدراية من قبلنا (كالعادة) لنقول لهم أن بني إسرائيل ليسوا جبناء، بل هم قوم أشداء، وليس أدل على ذلك من طلبهم من نبي لهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله ليعودوا إلى ديارهم التي أخرجوا منها:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

السؤال: لماذا إذًا رفض بنو إسرائيل دعوة موسى لهم بدخول الأرض المقدسة إن لم يكونوا جبناء (كما تزعم)؟ يسأل صاحبنا مستغربًا رأينا هذا.

رأينا المفترى: نحن نظن بأن بني إسرائيل لم يكونوا جبناء، ولكنهم كانوا أهل حيطة وحذر، وهم لا شك من أكثر أهل الأرض الذين يحرصون على ديمومة نسلهم. ولا شك – عندنا- أنهم قوم حاذرين، غير متهورين. وليس أدل على حذرهم من وصفهم الذي جاء في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: 243]

نتيجة مفتراة: بنو إسرائيل قوم يحذرون الموت حتى في سبيل الله. ولا أظن ذلك جبنًا ولكن خوفًا على ديموميتهم.

ولا شك – عندنا – أن التهور يتناسب عكسيًا مع العلم، فكلما زاد علمك قل تهورك، والعكس صحيح. فالشخص الذي قلّ علمه، يزيد تهوره. لذا، نلاحظ أن الحيطة والحذر من سمات بني إسرائيل، بينما التهور (بمعنى الشجاعة والإقدام) من سمات جماعتنا. لكن ما يندى له الجبين أن عشرين عسكريًا أمريكيًا اسقطوا نظام بطلهم المظفر في بلاد الرافدين، وخمسين عسكريًا روسيًا سيطروا على سوريا الحضارة والتاريخ، واندحرت أمامهم جحافل الفصائل المقاتلة غير المعدودة بين ليلية وضحاها. ما علينا.

نعم، لقد كان الحرص والحذر من أهم سمات بني إسرائيل، لذا لم يكونوا ليغامروا (نحن نتخيل) بمصيرهم أمام القوم الجبارين حتى لو كانت الدعوة قد جاءت من موسى نفسه، وليس أدل على ذلك من طلب بني إسرائيل من نبيهم موسى حينئذ أن يذهب ويقاتل هو وربه:

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]

السؤال: لماذا رفض بنو إسرائيل دعوة موسى؟ ولم كانوا حذرين محتاطين حتى بالرغم من وجود موسى بين ظهرانيهم؟

رأينا المفترى: دعنا نعود إلى ما قاله بنو إسرائيل لموسى من قبل عندما عاد إليهم رسولًا في أرض مصر:

- ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

لاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- كيف يصف بنو إسرائيل ما حلّ بهم حتى بوجود موسى بين ظهرانيهم قبل أن يكون رسولًا ومن بعد ما جائهم رسولًا؟ ألم يصبهم الأذى؟ هل تظن أن بني إسرائيل سيطمئنوا لكلام موسى حتى لو كان بين ظهرانيهم؟ ألم يصبهم الأذى في أرض مصر حتى بوجود موسى معهم؟ هل تظن أن علماء بني إسرائيل على تلك البساطة أن ينسوا تجربتهم السابقة تحت حكم فرعون في أرض مصر وموسى بين ظهرانيهم؟ هل تراهم لا يتوقعون مصيرًا كذلك في ظل وجود القوم الجبارين في

الأرض المقدسة؟ هل تراهم سيغامرون بمصيرهم مرة أخرى بعد نجاتهم من أذى فرعون؟ ألم يصروا على عدم دخولهم الأرض المقدسة (بالرغم من دعوة موسى لهم) حتى يخرج القوم الجبارين منها:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

السؤال: لماذا إذًا طلبوا من موسى أن يذهب ويقاتل هو وربه (إن صح ما تقول)؟ يسأل صاحبنا مستغربًا.

رأينا المفترى: نحن نتخيل الموقف وكأن لسان حالهم يقول لموسى (نحن نتخيل طبعًا) "إن كنت متأكدًا من النصر، فما فائدة ذهابنا معك، إذهب أنت وربك إذًا فقاتلا ونحن هنا قاعدون". ولو دققت في النص جيدًا، لوجدت أن فعل الذهاب قد سبقته الفاء (فَاذْهَبْ). ليكون السؤال الآن هو: لماذا جاء الفعل مرتبطًا بالفاء (فَاذْهَبْ)؟ لِم لَم يأت فقط بصيغة (اذهب) وكفى؟

رأينا المفترى: مادام الفعل قد جاء مرتبطًا بالفاء، فإن هناك كلام سابق مفهوم ظمنًا، فالفاء تربط هذه النتيجة بسبب سابق لها. ونحن نفهمه على النحو التالي (مادام أننا غالبون لأننا نحوز على المفتاح الذي سيجلب لنا النصر، فلا داعي أن نذهب نحن، فاذهب إذًا أنت وربك الذي أعطاك هذا المفتاح، فقاتلا ونحن ها هنا قاعدون، وسنلحق بك متى ما تحقق النصر لكما). وليس أدل على ذلك من وجود مفرد "ها" في الآية الكريمة:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

السؤال: لم قالوا له (إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ)؟ ولم لم يكتفوا بالقول مثلا (إنا هنا قاعدون) وكفى؟

رأينا المفترى: لو قالوا (إنا هنا قاعدون)، فهذا سيدلنا أن القوم قد تخلفوا عن موسى ولا يريدون اللحاق به تحت أي ظرف كان، لكن عندما قالوا له إنا (إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)، فهذا يعين – برأينا- وكأن القوم يقولون لموسى بأنك تعرف مكان تواجدنا بعد تحقيقك النصر وربك، وتستطيع أن تنادي علينا (هَا) فنلحق بك. فأنت تعرف مكان تواجدنا تستطيع أن تستدعينا بكل يسر وسهولة. ولا زلنا في العامية الأردنية - مثلا - ننادى على بعض عن بعد بعبارة (هيه يا فلان)!

ويكأن بني إسرائيل يرددون عبارة واضحة لموسى مفادها أن وجودنا معك (أو عدم وجودنا) لن يكون له تأثير ما دام أن أداة النصر (التابوت) معك. فلم المغامرة بنا معك ومع ربك؟!

السؤال: هل قال لهم موسى أنه يملك مفتاح الأرض المقدسة؟ فلم إذًا لم ينزلوا عند قول موسى لهم؟

رأينا المفترى: نعم. نحن نتخيل بأن موسى قد قال لهم ذلك، ولكن هل تظن أن علماء بني إسرائيل سيقبلون ذلك دون تجربة سابقة؟ هل تظن أن علماء بني إسرائيل سيطمئنون لقول موسى دون أن يروا التجربة بأعينهم؟ ألم يطلبوا من نبيهم أن يروا الله جهرة؟

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ [البقرة: 55]

نتيجة مفتراة: ما دام أن بني إسرائيل علماء، فلن يقبلوا بالقول دون تجريب. انتهى.

السؤال مرة أخرى: لماذا تظن – عزيزي القارئ- أن بني إسرائيل قالوا لموسى نفسه فاذهب أنت وربك فقاتلا؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل أنه عندما قال لهم موسى ذلك، لم يكن علماء بني إسرائيل سيصدقون ذلك إلا بالتجربة التي يرونها بأم أعينهم. لذا، فمنطق "العاقل منهم" (وليس المؤمن طبعًا) أن يقول لموسى مادمت مؤمنًا متيقنًا بأن هذا المفتاح (التابوت) سيحقق النصر، فما فائدة ذهابنا معك؟ ألا تستطيع أن تذهب أنت وربك فتقاتلا ونحن سنبقى هنا قاعدون؟ وما أن تحقق النصر، سنلحق بك على الفور (إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ). فقتالنا معك لا طائلة منه مادام أن هذا المفتاح هو سر تحقق النصر. انتهى.

السؤال: لماذا لم يذهب موسى ليقاتل هو وربه ويترك بني إسرائيل قاعدين هناك حتى ينهي المهمة؟ يستدركنا صاحبنا بالسؤال على الفور.

جواب مفترى: لأنهم ما زالوا قومًا فاسقين. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟ لم أفهم ما ترمي إليه؟ يقول صاحبنا.

رأينا المفترى: انظر عزيزي القارئ ما قاله موسى بعد أن رفض بنو إسرائيل دعوته رفضًا قاطعًا:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥﴾ [المائدة: 25]

وانظر عزيزي القارئ كيف أكد الله فسقهم في رده على موسى في السياق ذاته:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة: 26]

السؤال: ما الذي نستفيده من ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الفاسق هو الذي لا ينصاع للأمر، فهذا إبليس هو أول من فسق عن أمر ربه:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

السؤال: هل يستحق الفاسق أن يكافئ؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فالذي يفسق عن الأمر لن يكافئ على فسقه. لذا، نحن نفتري الظن بأنه مادام أن بني إسرائيل قد كانوا حينئذ قومًا فاسقين (باستثناء ذلكما الرجلان)، فهم لا يستحقون إذًا المكافأة على فسقهم، لا بل فهم مستحقون العقاب المكافئ لفسقهم، فكان جزاء فسقهم ذاك هو تحريم الأرض المقدسة عليهم والتيه في الأرض أربعين سنة:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 26]

السؤال: لماذا أربعين سنة؟

جواب مفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) أن السبب هو هذا:

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا إذًا بأن الله قد عاقب كل من فسق عن أمر موسى بأن حرم عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة، فيتيهون (يتشردون) في الأرض حتى يندثر ذلك الجيل عن بكرة أبيه، وحتى يؤول الأمر كله إلى جيل جديد ربما لم يخلق بعد من ذريتهم. ولو جاءت ذرية منهم بعد ذلك، فهم سيبلغون سن الأربعين، وسيكونوا هم أصحاب القرار في دخول الأرض المقدسة. ونحن نتخيل بأنهم لن يدخلوها ما لم يكونوا قومًا صالحين غير فاسقين، فعندها سيكونون هم فعلا أصحاب الحق في دخول الأرض المقدسة. ولو حصل أن جاء ذلك الجيل وتبين أنهم قومًا فاسقين (كما كان أسلافهم)، فسيبتليهم الله، وسيفشلوا في ذلك الابتلاء، ولن يكونوا مؤهلين لوراثة الأرض المقدسة.

السؤال: ما الذي حصل بعد الأربعين سنة في التيه؟ هل جاء جيل جديد من بني إسرائيل وكانوا قومًا ليسوا بفاسقين؟

رأينا المفترى: نعم. بالفعل خرج (نحن نفتري الظن) من ذرية بني إسرائيل جيل جديد، وكان هذا الجيل مؤهلًا لدخول الأرض المقدسة، فما كانوا فاسقين، فدخلوها بطريقة شرعية، ودخلوها من الباب، واستخدموا المفتاح (التابوت) ليدخلوها آمنين.

السؤال: أين الدليل على أنهم دخلوها بطريقة شرعية ومن خلال الباب وباستخدام التابوت؟

ثانيا، دعنا ننطلق الآن إلى المرة الثانية لمحاولة بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة في زمن نبي لهم من بعد موسى كما تبينه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ

أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا
وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي
ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ
أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة: 246-248]

نتيجة مفتراة: إن أول ما يمكن أن نستبطه من هذه الآيات الكريمة أن القوم قد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم (وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا) قبل مجيء ذلك النبي لهم من بعد موسى. فلقد كان القوم متواجدين في الأرض المقدسة من قبل، وتم إخراجهم على يد جالوت وجنوده أو من سبقوهم، وها هم الآن يطلبون من نبي لهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله، وهدفهم من ذلك القتال هي العودة إلى ديارهم (الأرض المقدسة).

السؤال الأول: لماذا طلب بنو إسرائيل الإذن من نبيهم للقتال؟ لِم لَم يقاتلوا (ماداموا راغبين في ذلك) بدون أخذ موافقة ذلك النبي؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يؤكد لنا افتراءنا السابق بأن بني إسرائيل يعلمون علم اليقين أن المسألة (دخول الأرض المقدسة) مش "معابطة" (كما نقول بالأردنية الدارجة). فهم يؤمنون يقينًا بأن دخول الأرض المقدسة لابد أن يكون بالطريقة الشرعية التي اختطها الله لهم حتى يضمنوا النصر والبقاء فيها آمنين بدون تهديد خارجي. لذا، لم يكونوا ليتجرأوا (نحن نعتقد)على القتال ما لم يأذن الله لهم بالقتال، ويكون أخذهم الأذن بذلك ذلك عن طريق نبيهم.

لكن لو دققنا في النص أكثر، لوجدنا بأن ذلك يستحيل أن يتم ما لم يتوافر التابوت بين ظهرانيهم. لذا، كانت المجادلة واضحة من قبل أكثر بني إسرائيل حينئذ لنبيهم في أحقية طالوت بالملك عليهم لظنهم بأنهم أحق بالملك منه إلا بآية الملك وهي التابوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

فلقد ظلت مجادلتهم له مستمرة:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 247-248]

حتى جاءت آية ملك ذلك الرجل، ألا وهي التابوت. ما عادوا مجادلين ولا مشككين في أحقيته بالملك عليهم.

فمادام أن الرجل هو من سيأتيهم بالتابوت في ظل حكمه، فقد اخرست جميع الأصوات العالية فيهم، وما كان منهم إلا أن يذعنوا للأمر رغمًا عنهم. فآية الملك (التابوت) هو القرار الإلهي لمن له الأحقية به. لذا، لم يتردد جمع كبير من بني إسرائيل حينئذ أن ينظموا إلى جند طالوت للقتال معه وتحت ملكه. فقد ساروا مطمئنين بأن النصر حليفهم، لأن التابوت متوافر بين أيديهم الآن. فلقد اكتسب بنو إسرائيل من الخبرات السابقة لهم بدخول الأرض المقدسة والخروج منها بأن التابوت هو مفتاح الأرض المقدسة، وأيقنوا تمامًا بأنه لا قوة على الأرض (حتى لو كان جالوت وجنوده) تستطيع أن تمنعهم من دخول الأرض المقدسة حتى لو صمدت منهم فئة قليلة فقط:

- ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 250-251]

السؤال: لماذا لم يتبقى مع طالوت إلا فئة قليلة بالرغم أن الذين خرجوا معه كثيرون؟ ألا يعلموا بأن التابوت بينهم؟ فما السبب في أنه لم يتبقى في ساحة المواجهة مع طالوت إلا نفر قليل منهم؟

رأينا المفترى: ألا تجد عزيزي القارئ أن الابتلاء الإلهي مستمر ليميز الخبيث من الطيب؟ لذا، دقق عزيزي القارئ ما حصل لمن خرج مع طالوت من الجند:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ

رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 249-251]

ألا تجد بأن جميع من خرجوا مع طالوت لم يكونوا كلهم راضين بحكم الرجل؟ ألم يجادلوا نبيهم في أحقيتهم بالملك؟ هل تظن أنهم سيسلمون بالأمر دون قيد ولا شرط؟

رأينا المفترى: لمّا كنا نفهم طبيعة بني إسرائيل وحبهم لأنفسهم على حساب الآخرين، ستبقى دائمًا بينهم بعض الأصوات التي ترفض الجسم الغريب بينهم؛ إنها العنصرية العرقية لنسل بني إسرائيل. وما دام أن طالوت نفسه (نحن نزعم) ليس من بني إسرائيل، لذا لن يتقبله كل المجتمع الإسرائيلي بكل يسر وسهولة. فكان هذا ابتلاء لهم ليميز الله من يتقبل الحق ممن ما زال يظن أن الأمر عنصرية مقيته له ولقومه، فلسان حال كثير منهم هو ما تبينه الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]

لكن الله حسم الأمر بأنهم ليسوا أبناء الله وأحبائه، بل هم بشر ممن خلق. لذا، كان من نزل منهم عند هذا الحق مستحقًا الجزاء الطيب، وتبين أن من رفضه وأصر على عنصريته المقيته لا يستحق الجزاء الطيب، بل سيصيبهم الإقصاء عن (والاستثناء من) أنعم الله عليهم. وبالفعل كان الشرب من ذلك النهر هو الابتلاء الذي به يعلم الله من يتقبل الأمر منهم مقابل من يفسق عنه، فلا يتقبله، فيستبعد على الفور:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: 249]

إنه الاختبار ذاته الذي مرّ به بنو إسرائيل من قبل مع موسى ولكن بطريقة جديدة لم يكونوا ليحتسبوا لها من قبل. فموسى قد طلب منهم طلبًا، ففسقوا عن أمره، فتم لهم العقاب، فما دخلوا الأرض المقدسة.

ولكن هذه المرة، هم لا يشكون بالنصر، ويعلمون أن التابوت يتقدمهم، فجاءهم الاختبار الإلهي بطريقة أخرى مفاجئة لهم ألا وهي عدم الشرب من النهر كما أمرهم بذلك طالوت الملك عليهم، فها هو طالوت صاحب الشرعية الذي ليس منهم هو من يأمرهم، فهل سيتقبل بنو أسرائيل أمر ملك غريب عليهم؟

لقد رضخ بنو إسرائيل لأحقية طالوت بالملك عليهم بعد جدال عنيف مع نبي لهم، لكن هل هدأت قلوبهم جميعًا واطمأنت لذلك عندما خرجوا في جيشه لقتال جالوت وجنوده؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الغالبية الساحقة من بني إسرائيل قد أشربوا في قلوبهم العجل، وأن ثقافة الاصطفاء الإلهي لهم قد رضعوها من ثدي أمهاتهم، فهل سيكون من السهل عليهم التنازل عنها لرجل غريب له الملك عليهم؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، لذا شرب الكثير منهم من النهر الذي ابتلاهم الله به، فبانت نواياهم الحقيقية تجاه القرار الإلهي بأحقية طالوت بالملك عليهم، فبان أن غالبيتهم لا يتقبلون ذلك في صدورهم حتى وإن خرجوا معه بأرجلهم، فجاءهم الابتلاء الإلهي، فتبين المصلح من الفاسق، فكانوا من الممنوعين من دخول الأرض المقدسة، لأنهم ببساطة لا يستحقونها. بينما تقدمت – بالمقابل - فئة قليلة مؤمنة صادقة (غير فاسقة) منهم فكان لهم النصر، وهذه الفئة هي لا شك فئة مؤمنة:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]

نتيجة مفتراة: كثير من بني إسرائيل فاسقون، فلا يستحقون دخول الأرض المقدسة.

نتيجة مفتراة: فئة قليلة من بني إسرائيل مؤمنون ويستحقون وراثة الأرض.

وليس أدل على ذلك من دعوتي هذه لهم. راقب عزيزي القارئ – إن شئت- كيف ستكون دعوتي هذه في بني إسرائيل لو أنها فعلًا وصلتهم الرسالة واضحة وجلية، هل يتقبلونها؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن إيمانًا مطلقًا بأن أغلبيتهم لن تتقبل هذه الدعوة، لأنها جاءت (برأينا) من شخص ليس منهم، لكن ستظهر هناك (نحن نظن) فئة قليلة منهم يتقبلون هذه الدعوة بصدر رحب، وسيفهمونها حق الفهم، لا بل وسيطبقونها على الفور، لأنهم ببساطة مؤمنين موحدين، هدفهم الأول والأخير الإلتزام بالحق حيثما وجد. فهؤلاء سيكونون ممن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق:

- ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16]

- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]

لكن المتبجحون زورًا وبهتانًا باتباع عيسى وموسى لن يخفون على الله، وسيبتليهم الله ليعلم كيف يفعلون:

- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 13-14]

وسيبين – لا محالة- أن كثيرًا منهم فاسقون، لأنهم لن يكونوا من الذين آمنوا وتخشع قلوبهم لذكر الله، ولكن سيبقى بينهم قليل من الذين آمنوا وهم الذين ستخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

السؤال: إن صح ما تقول، فأين هو ذلك الباب؟ وأين هو ذلك التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن كل جهد بني إسرائيل في الحفريات التي يجرونها دون كلل ولا ملل في الأرض المقدسة (وخاصة تحت الأقصى) له هدف واحد حتى وإن كذبوا على العالمين: إنه البحث عن تابوت العهد القديم الذي يعرفون حق المعرفة أنه السبيل الوحيد لإثبات أحقيتهم بوراثة الأرض المقدسة ودخولها بشرعية إلهية لا تستطيع قوة على الأرض أن تمنعهم عن ذلك إن هم حصلوا عليه. لكن دعني من هذا المكان أوجه رسالة بسيطة وجلية لهم مفادها بأن لا تتعبوا أنفسكم بالبحث عن تابوت العهد القديم (مفتاح باب الأرض المقدسة) لأنه في الحفظ الإلهي، وصدقوني أنكم لن تحوزوا عليه ما لم تكونوا من الذين تلين قلوبهم وجلودهم لذكر الله، وستحرقكم نار جذوة النار هناك في البقعة المباركة من الشجرة التي لا تنطفئ. فأرجعوا ما سلبتم الآخرين من حقوق عنوة. وابحثوا عن التابوت بطريقة شرعية، ربما يظهر من بينكم من له الحق في حيازته. وبخلاف ذلك، فإنكم تحاربون الله وتظهرون في الأرض الفساد. انتهى.

السؤال: لم تقول مثل هذا الكلام وكأنك تعرف التابوت وتعرف مفتاحه؟ يقول صاحبنا متعجبًا.

رأينا المفترى: دعني أقل لكم جميعًا بأنني لن أقدم بعد هذه السطور افتراء آخر يتعلق بهذه القضية في المستقبل القريب لعلمي بحساسيتها وخطورتها. وستأتي تلك الافتراءات في وقتها متى ما أذن الله لي بذلك، وعندها سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. انتهى.

عودة على بدء: قصة سبأ

دعنا نعود إلى حديثنا الأول بخصوص قصة سبأ كما ترد في الآيات الكريمة التي أوردناها في مقدمة هذه المقالة والتي سنعيدها هنا لكي يتسنى للقارئ متابعة النقاش معنا في هذه القضية، قال تعالى:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 15-22]

لنطرح حولها التساؤلات الكثيرة والمثيرة في محاولة منا لقراءة النص بطريقة جديدة، ربما نصل من خلالها إلى افتراءات جديدة نظن أنها غير مسبوقة، سائلين الله على الدوام أن نكون من القوم الذين حقيق عليهم أن لا يقولوا عليه إلا الحق، فلا نفتري عليه الكذب، ولا نبوح إلا بما أذن الله لنا به من علم إن شاء، إنه هو الحكيم العليم.

التساؤلات

⇐ أين هي سبأ؟ وأين هو مسكنهم؟
⇐ أين هما جنتاهم؟
⇐ لماذا هي بلدة طيبة؟

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: 15]

⇐ لماذا أعرضوا؟
⇐ لماذا أرسل الله عليهم سيل العرم؟
⇐ ما هو سيل العرم أصلًا؟
⇐ كيف بدّلهم الله جنتيهم بجنتين ذواتي أكل خمط وشيء من سدر قليل؟
⇐ ما هو الأكل الخمط؟
⇐ ما هو الأثل؟
⇐ ما هو السدر؟

- ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ [سبأ: 16]

⇐ لماذا كان ذلك جزاؤهم؟

⇐ لماذا كفروا؟
⇐ ما هو جزاء من كان كفور؟

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 17]

⇐ كيف جعل الله بينهم وبين القرى التي بارك فيها قرى ظاهرة؟
⇐ ما هي تلك القرى الظاهرة؟
⇐ لماذا كان السير فيها ليالي وأيامًا؟
⇐ كيف قدر الله ذلك السير فيها ليالي وأيامًا آمنين؟

- ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18]

⇐ لماذا طلبوا أن يباعد الله بين أسفارهم؟
⇐ كيف ظلموا أنفسهم؟
⇐ كيف جعلهم الله أحاديث؟
⇐ كيف مزقهم الله كل ممزق؟
⇐ كيف كان في ذلك آيات لكل صبار شكور؟

- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 19]

⇐ كيف صدق إبليس عليهم ظنه؟
⇐ وما دخل إبليس بهذه القصة على وجه التحديد؟

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 20-21]

⇐ الخ.

أما بعد،

دعنا نبدأ النقاش هنا منطلقين من افتراضنا المتكرر بأن سبأ هي وادي النيل (وخاصة المنطقة الجنوبية منه، أي جنوب مصر الحديثة والسودان بشقيه الشمالي والجنوبي حتى أعالي النيل). وأن الجنتين هما اللتان يشقهما النهر عن يمينه وشماله. وأن تلك الأرض كانت موطنًا لقوم آخرين يقومون على زراعته واستغلال طيبات الرزق منه بعد هلاك فرعون وتدمير كل ما كان يصنع قومه وما كانوا يعرشون. وأن بني إسرائيل هم من أورثوا تلك الأرض. وأن مدينة الخرطوم (السودانية) هي نفسها المدينة التي اتخذها فرعون عاصمة له. وأن رأس المال قد تجمع بيد من ورث الأرض من بني إسرائيل بعد هلاك فرعون. وأن أوج حضارة سبأ نشأت على أعقاب هلاك فرعون وقومه في زمن تلك المرأة التي أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وأن أولئك القوم كانوا أولوا قوة وأولوا بأس شديد. ليكون السؤال الأول الأن هو: ما الفرق بين

القوة والبأس الشديد، صفات أولئك القوم كما جاء على لسانهم في ردهم على طلب المرأة المشورة منهم لترد على كتاب سليمان لها الذي نقله الهدهد؟

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ [النمل: 29-33]

رأينا المفترى: لقد افترينا سابقًا بأن البأس الشديد مصدره الحديد:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: تلك إذًا حضارة قد تمكّنت من استخدام الحديد بالشكل الأمثل، فكانوا أولوا بأس شديد، وذلك لأن البأس الشديد يتأتى من استخدام الحديد. فكانت تلك الحضارة هي حضارة الحديد. ولا ننسى – كما قلنا سابقًا - بأن هذه الحضارة كانت متزامنة مع عصر داوود وولده سليمان من بعده. ولا ننسى كذلك أن الله هو من ألآن الحديد لداوود:

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ: 10]

فكانت تلك الحقبة الزمنية كلها تمتاز باستخدم الحديد، فكان ذلك هو العصر الحديدي. انتهى.

لكن يبرز هنا السؤال التالي: إذا كان البأس الشديد قد تأتى لهم من استخدامهم الحديد الاستخدام الأمثل، فمن أين جاءتهم القوة؟

جواب مفترى خطير جدًا جدًا: القوة مصدرها الكتاب. فهذا يحيى يأخذ الكتاب بقوة:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: 12]

نتيجة مفتراة: توافر علم من الكتاب في تلك الحضارة (قوم سبأ) فكانوا أولي قوة، وتوافر لهم استخدام الحديد، فكانوا أولي بأس شديد. فكانت فيهم صاحبة العرش (بعلم التأويل كما كان ليوسف). وتزايد ذلك العلم بعد إسلامهم بما جلبوه من الأسفار من عند سليمان بعد دخولهم الإسلام معه. فجاءهم علم على علم.

السؤال: لماذا وقع عليهم العذاب (إن صح ما تقول)؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: لمّا أسلمت تلك المرأة مع سليمان لله رب العالمين، ولما أسلم قومها معها، جلبت كثيرًا من علم الكتاب لهم، كما جلبت لهم الإسلام. لكن يبرز السؤال التالي على الفور: ما الذي حصل بعد موت تلك المرأة؟ وماذا حلّ بهم بعد ذلك؟

رأينا المفترى: لقد حصل الاختلاف بينهم، لأن الاختلاف حاصل لا محالة بين الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم، ولا يكون ذلك مدفوعًا إلا بالبغي بينهم:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

السؤال: كيف حصل ذلك الاختلاف بينهم حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عاد لبني إسرائيل المتواجدين حينئذ في سبأ كثير من العلم، فكانت فيهم الأسفار. ونحن لا نشك قيد أنملة بأن الأسفار ليست أكثر من فصول من علم الكتاب. فما زالت التوراة (كتاب موسى الذي هو إمامًا ورحمة) ينقسم إلى أسفار، أي فصولًا، كما قد فُرّق القرآن إلى سور.

السؤال: أين كانت تلك الأسفار متواجدة؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن تلك الأسفار كانت متواجدة بين أيدي بني إسرائيل المتواجدين حينئذ في تلك المنطقة. فماذا فعلوا بها؟

رأينا المفترى: لمّا كان بنو إسرائيل على علم بما في تلك الأسفار، لم يكونوا ليتفقوا فيما بينهم، فحصل الإختلاف بينهم. وكانت واحدة من دوافع الاختلاف بينهم حينذ تخص "قضية العودة من جديد إلى الأرض المقدسة" التي كتب الله لهم. فما تراهم فاعلين؟ لعل هذه القضية كانت ستسبب الاختلاف بينهم أكثر وأكثر. وسيكون محرك ذلك الاختلاف هو قضية مركزية تتعلق بكيفية انتقالهم (وتوقيت انتقالهم) من سبأ إلى القرى المباركة في ظل وجود القرى الظاهرة التي تفصل بينهم من جهة والقرى المباركة من جهة أخرى. فالقرى الظاهرة تلك تفصل بين بداية رحلتهم من سبأ ونهايتها في الأرض المباركة. فكيف سيحسمون أمر انتقالهم من هنا إلى هناك؟

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: كان على بني إسرائيل أن يخططوا طريق رحلتهم في العودة إلى الأرض المقدسة مرورا بتلك القرى الظاهرة الواقعة في منتصف الطريق، فكيف سينفذون ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لمّا كان بنو إسرائيل – كما افترينا سابقًا – حذرين ألا يقع عليهم الأذى ويحل بهم الاستعباد من جديد، كان عليهم أن يخططوا طريق رحلتهم (وتوقيت ترحالهم) إلى القرى المباركة بطريقة دقيقة جدًا، لا توقعهم في قبضة سلطان جائر كما وقعوا في قبضة فرعون سابقًا، فيلحق بهم الأذى بالاستعباد في الأرض التي لا ينتمون لها مرة أخرى. وبكلمات بسيطة، نحن نتخيل أنه كان عليهم أن ينتقلوا

من تلك الأرض (سبأ) إلى الأرض المقدسة مرورًا بالقرى الظاهرة الفاصلة بين الطرفين دون أن يقع عليهم العذاب في الأرض من جديد. فكيف سيتفذون ذلك على أرض الوقع؟ نحن نسأل مرة أخرى.

رأينا المفترى: كان أمام بني إسرائيل خياران اثنان: إما أن يلتزموا بالقرار الإلهي وينفذونه بحذافيره أو أن يستخدموا ذكاءهم ويعتمدوا على أنفسهم في تنفيذ تلك المهمة.

الدليل

لو تدبرنا الآيات الكريمة الخاصة بقصة سبأ مرة أخرى، لوجدنا أن سبب هلاكهم هو إعراضهم:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: 15-17]

السؤال: ما معنى أن القوم قد أعرضوا؟

جواب مفترى: لو تفقدنا مفردة الإعراض على مساحة النص القرآني لوجدنا أن الإعراض هو الابتعاد عن الأمر سواء بتنفيذ أمر الله أو تنفيذ ما نهى الله عنه. فهذا إبراهيم – مثلا- يؤمر أن يعرض:

- ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 76]

فالأمر الإلهي بعذاب قوم لوط قد جاء، فما كان من رسل ربك إلا أن يطلبوا من إبراهيم أن يعرض عن مجادلتهم:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74-76]

فهل كان إبراهيم يستطيع بعد ذلك أن يستمر في المجادلة؟

وهذا سيد المرأة يطّلع على ما كان من أمرها مع يوسف، فيطلب من يوسف أن يعرض عن هذا:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

فهل كان يوسف يستطيع ألا يعرض عن ذلك؟

رأينا المفترى: ما كان إبراهيم وما كان يوسف يستطيعان إلا أن يعرضا. فالأمر لهم واجب الاتباع، ومن يعرض عن الأمر الصحيح سيكون مستحقًا العذاب.

لكن ما يلفت الانتباه هنا بأن الأمر هنا جاء بالنهي عن شيء، فكان لزامًا على من نهي عن ذلك الشيء أن يعرض، لكي لا يقع عليه العذاب.

وهناك بالمقابل، يأتي الأمر بأن تفعل شيئًا، فماذا ستكون النتيجة لو أنت أعرضت وما فعلت ما طُلب منك وجوبًا؟ رأينا المفترى: لا شك سيقع عليك العذاب، لأنك أعرضت عن شيء كان يتوجب عليك فعله. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- فيما يحصل لمن جاءه الأمر الإلهي بفعل شيء ما، فما امتثل للأمر الإلهي بالإعراض عنه:

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء: 67]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف: 57]

فمن ذكر بآيات الله فأعرض عنها ، فهو إنسان كفور. ولو تدبرنا قصة سبأ من هذا الجانب لوجدنا أنهم قد أعرضوا، فكان جزاءهم هو جزاء من كان كفورًا:

- ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 16-17]

لتكون النتيجة المفتراة المهمة جدًا هنا هي على النحو التالي: لقد تم تذكير هؤلاء القوم بآيات الله فأعرضوا، فكفروا بها، فكان جزاءهم بما يجازي الله به كل كفور.

ولو تدبرنا الآية الآيات الكريمة التي تبين لنا جزاء من أعرض، لوجدناها تبين أن العذاب سيكون صعدًا:

- ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾ [الجن: 16-17]

وغالبًا ما تكون ردة فعل من يرى آية ويعرض، على نحو أن ينعت ذلك بالسحر المستمر:

- ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [القمر: 2]

لأنهم سيكونون ممن يتبعون أهواهم وكل أمر مستقر:

- ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ [القمر: 2-3]

ولو حاولنا اسقاط ذلك على قصة سبأ، لربما صح لنا أن نفتري القول أن القوم قد جاءتهم آيات ربهم، فأعرضوا، فأصابهم العذاب الإلهي نتيجة إعراضهم، ربما لأن الغالبية منهم نعتوا تلك الآيات بالسحر المستمر، وفضلوا اتباع أهواءهم وكل أمر مستقر.

نتيجة مفتراة: كان الاختلاف بين بني إسرائيل مصدره إما اتباع الآيات وتصديقها أو الإعراض واتباع أهواءهم وكل أمر مستقر. ولا شك أن نتيجة ذلك الإعراض ستكون المعيشة الضنكى:

- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: 124]

ولا شك أن الله سينتقم ممن أعرض بعد أن ذُكِّر بآيات ربه، لأنه ببساطة ظالم مجرم:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: 22]

والآن لنتدبر الآية التي وردت في سياق الحديث عن سبأ من هذا الجانب:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾ [سبأ: 15-16]

نتيجة مفتراة: بعد أن كانت أنعم الله سابغة على سبأ، وبعد أن تم تذكيرهم بآيات الله، كانت ردة فعلهم الإعراض عن آيات الله واتباع أهواءهم، فأصابهم العذاب بأن أرسل الله عليهم سيل العرم، فما عادت جنتيهم كما كانتا، وما عاد مسكنهم بلدة طيبة، لأن غفران الله ما عاد يظلهم كما كان من ذي قبل. فلقد كان في مسكنهم آية، وكانت تلك الآية على نحو جنتان عن يمين وشمال، وكانت بلدتهم طيبة وربهم غفور. فما كان منهم إلا أن يعرضوا.

السؤال: كيف حصل ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لو رجعنا إلى قصة سبأ، لوجدنا بأن تلك الحضارة قد بلغت أوجها وتألقها السياسي والاقتصادي والعلمي في زمن تلك المرأة التي كانت تملكهم. وقد افترينا في مقالات سابقة لنا تحت عنوان "ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته" أن أداة ملك تلك المرأة لقومها كان العرش. فالعرش كما افترينا حينئذ هو أداة المراقبة التي من خلالها كانت تلك المرأة تراقب تصرفات قومها، فما كان أحد منهم يستطيع أن يحيد عن أمرها، لأن كل ما يفعل أحدهم يقع تحت ناظريها في الحال:

- ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ [النمل: 33]

فبالرغم من قوتهم وبالرغم من بأسهم الشديد إلا أنهم أرجعوا الأمر كله لها، فهي صاحبة النهي والأمر في أولئك القوم. ليكون السؤال الآن هو: كيف كان ملك تلك المرأة فيهم؟ هل كان حكمًا عادلًا أم جائرًا؟

رأينا المفترى: لا شك أن المرأة كانت تحكم فيهم بالعدل بدليل أنها ما كانت قاطعة أمرًا فيهم حتى يشهدون:

- ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾ [النمل: 32]

فالمرأة إذًا صاحبة نفوذ قوي، لكن بالرغم من ذلك، لم تستخدم نفوذها في ظلم من كانت تحكمهم، بل على العكس فقد كانت تأخذ مشورتهم فلا تقطع أمرًا حتى تشهدهم عليه.

نتيجة مفتراة: كانت العدالة (بالحكم الرشيد) تسود في سبأ بسبب ملك تلك المرأة لهم.

ولو دققنا في قصة تلك المرأة ثانية مع سليمان، لوجدنا أن حضارتهم كانت غنية جدا، وليس أدل على ذلك مما بعثته لسليمان كهدية:

- ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾ [النمل: 35-36]

فتخيل عزيزي القارئ – إن شئت- مقدار حجم المال الذي بعثته لسيمان حتى تصد خطره عنها وعن وقومها. ولاحظ كيف قارن سليمان ما جاءوا به إليه كهدية بما عنده هو نفسه (قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم). فكم حجم الثروة التي كانت في يد تلك المرأة حتى ظنت أن هدية من المال يمكن أن تسكت سليمان (وهو صاحب الكنوز العظيمة) عنها وعن قومها؟

رأينا المفترى: لا شك أن حجم المال الذي أرسلت به تلك المرأة لسليمان كان كبيرًا جدًا، لدرجة أنها ظنت أن مثل ذلك المال يمكن أن يصد خطر الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة:

- ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل: 34-35]

ولو دققنا أكثر في هذه الآيات الكريمة على وجه التحديد، لوجدنا بأن ما كان يصف تلك الحضارة هما شيئان اثنان:

1. أن بلادهم لم يكن فيها الفساد، فالمرأة تحاول أن لا يدخل الملوك قريتها لأنهم إن فعلوا أفسدوها. فالنظام والأمن يسود قريتها، وهي تحاول جاهدة المحافظة عليه
2. أن فيها قوم هم أعزة (طبقة النبلاء). فهناك إذا من القوم من حولها من هم أعزة يحاولون الحفاظ على مكتسباتهم. ولا شك عندنا بأن الأعزة من القوم هم النخبة من حاشية المُلك (للتفصيل انظر قصة يوسف حول معنى العزيز).

وبوجود تلك المرأة وحكمها الرشيد (مثلي) فيهم، ساد الأمن وعمّت الخيرات، وحفظت التوازن بين أعزة القوم، وكانت سبأ جنات عن يمين وشمال، بلدة طيبة ورب غفور (خاصة بعد أن دخلها التوحيد من جديد). وهنا نضطر أن نطرح سؤالنا السابق مرة أخرى: ما الذي حصل بعد موت تلك المرأة وموت سليمان أيضًا؟ ماذا حلّ بالقوم؟ ما الذي حصل في حكم تلك البلاد؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لمّا ماتت تلك المرأة، ولمّا لم يكن لها مُلكٌ متوارث من بعدها (فهي ليست مَلِكة أصلًا)، ولمّا كان في قومها طبقة هم جميعًا أعزة، ولما كانت الثروة بين أيديهم طائلة جدًا، ولما كان علماء بني إسرائيل بين ظهرانيهم يختلفون في الكتاب عن علم، ولما... ولما ...، أصاب عندها تلك البلاد الضعف بسبب النزاع على السلطة والثروة والعلم. فلا شك – عندنا- أن القوم سيتنازعون على الثروة وعلى توزيعها بالشكل العادل الذي يضمن لهم ديمومة أنعم الله. ولا شك أنهم سيختلفون على طريقة الحكم ومن أحق بالملك منهم، ولا شك أن من جاءهم العلم سيختلفون فيه بغيًا بينهم. فما الذي فعلوه حتى أصاب الله بلدتهم الطيبة بعذاب سيل العرم، فبدّلهم جنتيهم بجنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أنهم قد صرموها كما فعل أصحاب الجنة في الطائف من قبل. فحاول كل منهم (نحن نتخيل) الاستئثار بأكبر كمية منها، مانعًا غيره عنها. فسادت سياسة القوة، وهيمن القوى الجشع على الجنات مانعًا الضعيف المسكين من دخولها، فأصابهم الله بذنبوهم، فكان العذاب على نحو ذهاب تلك الجنات كلها، وما تبقى منها إلا النزر اليسير:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: 15-16]

ومن هنا (نحن نرى) جاءت المقابلة معهم في تلك القصة السابقة عن أصحاب الجنة:

- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ

وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ
مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ
٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ
أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم: 8-33]

(للتفصيل انظر مقالتنا السابقة تحت عنوان قصة أصحاب الجنة)

فأصبحت سبأ (نحن نتخيل) بلدة غير طيبة لأنهم لم يشكروا لربهم:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 15-17]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن أصبحت سبأ بلدة "غير طيبة" كما كانت، ما عاد السكن فيها يطاق لبني إسرائيل، ولما ساد الظلم والاستبداد، خشي بنو إسرائيل على أنفسهم من الاستعباد، فأين سيذهبون؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن بأن بني إسرائيل لا يختارون السكن إلا في البلاد القوية سياسيًا (للتقرب من مركز الحكم والنفوذ)، والقوية اقتصاديا (من أجل المال) والتي يسودها القانون (حتى لا يقع عليهم الظلم). وما تغيّرت هذه الظروف في مكان سكنوه إلا رحلوا منه إلى غيره.

السؤال: مادامت أن ظروف المعيشة قد تغيرت في سبأ، فما عادت ملائمة لبني إسرائيل حتى (نحن نتخيل) عاد الحنين في هذه اللحظة بهم للحاق ببقية ببني جلدتهم في القرى المباركة (الأرض المقدسة). فتلك القرى يسكنها حينئذ بنو إسرائيل الذين عادوا إليها على يد طالوت. ويمكن أن تتخيل المشهد - عزيزي القارئ - على نحو ما فعل يهود اثيوبيا والسودان (يهود الفلاشا) عندما نشأت الدولة اليهودية في فلسطين في القرن الماضي. نعم، لقد عزموا الانتقال من سبأ إلى القرى المباركة شمالًا. فكان ذلك موسم هجرتهم إلى الشمال!

لكن كانت القرى الظاهرة تحول بينهم وبين تحقيق هدفهم بالانتقال. فكيف سيخططوا رحلتهم مرورًا – لا محالة - بالقرى الظاهرة؟

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ

قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى
ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 15-18]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدًا: لقد كان قرار بني إسرائيل هو على النحو التالي: المباعدة بين أسفارهم. انتهى.

- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ
شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ
إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن
ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 19-22]

السؤال: ما معنى ذلك؟ لم أفهم شيئًا. يرد صاحبنا قائلًا.

رأينا المفترى: حتى تفهم عزيزي القارئ ما نود قوله هنا، عليك أن تفكر أولًا بمعنى قولهم (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا)؟

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟ يسأل صاحبنا متعجلًا الإجابة.

جواب مفترى: ولو دققت عزيزي القارئ في الآية الكريمة، لوجدت أن قولهم ذاك (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا) كان فيه ظلم لأنفسهم (وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ)، لا بل وكانت نتيجة قولهم ذلك وظلمهم لأنفسهم أن جُعلوا أحاديث وتم تمزيقهم كل ممزق (وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ)، وكان في ذلك كله آيات لكل صبار شكور (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ). لنصل إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: لم يكن القوم من الصابرين وما كانوا من الشاكرين، لأنهم لو كانوا كذلك، لما حلّ بهم كل ذلك العذاب (أن جُعلوا أحاديث ومُزقوا كل ممزق).

تلخيص ما سبق: كانت ردة بني إسرائيل على ما حلّ بمسكنهم من الدمار، وبما يتهددهم من خطر الاستعباد من جديد بسبب غياب العدالة في تلك الأرض بعد موت تلك المرأة الحديدة (فلا تنسوا كيف كانت توصف تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا على وجه التحيد بالمرأة الحديدية) أنهم طلبوا من ربهم أن يباعد بين أسفارهم، فكان في ذلك ظلمًا لأنفسهم، وكانت نتيجة قولهم ذلك أنهم جُعلوا أحاديث وتم تمزيقهم كل ممزق. وذلك لأنهم ما كانوا صابرين وما كانوا شاكرين.

السؤال: لماذا كان في قولهم ذلك ظلم لأنفسهم؟ ولماذا تم عقابهم على قولهم ذلك (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا) على تلك الشاكلة؟

جواب مفترى: لأن إبليس قد صدق عليهم ظنه. انتهى.

انظر عزيزي القارئ الآيات الكريمة التي تتبع مباشرة قولهم ذلك (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا) وظلمهم لأنفسهم (وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)؟

- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 19-22]

السؤال: وكيف يمكن أن نفهم ذلك؟ يسأل صاحبنا

رأينا المفترى: حتى نفهم ذلك، علينا أن نطرح جملة من التساؤلات حول هذه الآيات الكريمة، نذكر منها:

- ⇐ ما معنى قولهم (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)؟
- ⇐ لماذا قالوا ذلك؟
- ⇐ هل كان ذلك هو القرار المناسب في الوقت المناسب؟
- ⇐ ما الذي كان يجب أن يقولوه حتى لا يظلموا أنفسهم؟
- ⇐ كيف يكون في ذلك آيات لكل صبار شكور؟

- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 19]

- ⇐ لماذا صدق عليهم إبليس ظنه؟
- ⇐ كيف صدق عليهم إبليس ظنه؟
- ⇐ لماذا اتبعوه؟
- ⇐ من هم الفريق من المؤمنون الذين لم يتبعوا إبليس؟
- ⇐ هل كان لإبليس عليهم سلطان؟

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ: 20]

- ⇐ كيف كان في ذلك علم الله بمن هو مؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها؟

- ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٢١﴾ [سبأ: 21]

⇐ الخ

بدأية، نحن نظن (ربما مخطئين) بأن المشكلة كلها تكمن في قولهم (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا)، فذاك كان قرار الغالبية منهم الذين لم يكونوا مؤمنين، وهم الذين صدق عليهم إبليس ظنه. لذا، انقسم القوم حينئذ (نحن نتخيل) إلى فريقين غير متكافئين في العدد، فكانت الأغلبية من الذين صدق عليهم إبليس ظنه، بينما كانت الأقلية من المؤمنين الذين لم يصدق عليهم إبليس ظنه. لكن لمّا كانت الأغلبية من غير المؤمنين، كان قولهم هو الذي نُفِّذ على أرض الواقع، فكانوا هم من قالوا (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا)، بينما الأقلية المؤمنة لم تقل ذلك، لأنهم ببساطة لم يكونوا ممن قالوا (رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا).

نتيجة مفتراة 1: كان الفريق الأول (الأغلبية) مؤيدًا لمباعدة الأسفار.

نتيجة مفتراة 2: كان الفريق الثاني (الأقلية) لا تريد مباعدة الأسفار.

السؤال المحوري: ما معنى مباعدة الأسفار؟

رأينا المفترى: بدايًة، علينا أن نفهم بأن الأسفار هي الفصول في الكتاب الواحد، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: 5]

فالأسفار إذًا يمكن حملها على الحمار. لكن الحمار الذي يحمل الأسفار لن يستفيد منها لأنه ببساطة حمار. ولكم أن تتخيلوا كم عدد الذين حمّلوا الأسفار ولم يحملوها، أليس الحمار أهدى منهم؟ ما علينا!

إن ما نود قوله هو - ببساطة - أن القوم كانوا يملكون الأسفار، وكانوا يتأهبون للخروج من سبأ باتجاه الأرض المقدسة مرورًا بالقرى الظاهرة. ولا شك عندنا أن القرى الظاهرة هي قرى لها سطوة عسكرية، وكانت تلك القرى أكثر قوة من هؤلاء الذين يريدون المرور بها من بني إسرائيل باتجاه القرى المباركة. فدب في قلوب بني إسرائيل الخوف من سطوة هذه القرى عليهم إن هم مروا بها يحملون تلك الأسفار العظيمة. وكان أكثر ما يخيفهم هو سطوة تلك القرى الظاهرة على أسفار بني إسرائيل المرتحلين باتجاه الأرض المباركة. فكيف سيخطط بنو إسرائيل رحلتهم بطريقة تضمن لهم حماية تلك الأسفار من أن تقع في أيدي القرى الظاهرة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان قرار الفريق الأول (الأغلبية منهم) على نحو مباعدة الأسفار، أي على نحو ألا يخرجوا جميعًا دفعة واحدة يحملون جميع الأسفار جملة واحدة في الرحلة ذاتها، فاتفقوا (بتخويف من الشيطان) أن يخرجوا منقسمين في جماعات، تحمل كل جماعة منهم واحدًا من تلك الأسفار العظيمة، حيطةً وحذرًا ألا تقع جميعها جملة واحدة في يد القرى الظاهرة.

وكان رأي الفريق الثاني (الأقلية المؤمنة) على نحو عدم المباعدة بين الأسفار، فيخرجوا بها جميعًا جملة واحدة، وتبقى الأسفار كلها مجتمعة، لظنهم بأن الله لا محالة سيحميهم، وسيسدد خطاهم إن هم فعلوا ذلك.

السؤال: من الفريق الذي كان صاحب القرار الصائب؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن الفريق المؤمن الذي لم يقل بمباعدة الأسفار هو صاحب القرار الصائب.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن هذا الفريق المؤمن عنده الخبر اليقين بالوقت المقدر من الله لميقات انطلاق الرحلة. فلو أنهم انطلقوا في رحلتهم في وقت مقدر بذاته، لنجحوا بالعودة دون خسائر تذكر.

السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة التالية الواردة في السياق القرآني الخاص بقصة سبأ ذاته:

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ
﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم
مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 18-22]

نعم، لقد قدّر الله (تقديرًا) السير في تلك الرحلة لياليًا وأيامًا آمنين (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ). ولو أن بني إسرائيل (نحن نظن) ساروا بالتقدير الإلهي لنجوا جميعًا ولما كانوا أحاديث ولما حلّ بهم كل ذلك التمزيق. لكن ما الذي حصل؟

رأينا المفترى: لما كان أولئك القوم غير صابرين، فإنهم بالتالي كانوا متعجلين (كعادة بني إسرائيل طبعًا). فما انتظروا الوقت الذي قدّره الله ليسيروا في تلك القرى ليالي وأيامًا آمنين. فلقد كان رأي فريق المؤمنين منهم الذين غُلِبوا على أمرهم ألا يتعجل القوم في الإنطلاق في تلك الرحلة حتى يحين الوقت المناسب كما قدّره الله. ولا شك عندنا أن علم ذلك الوقت موجود عندهم بما علموه من الكتاب (الأسفار). لكن لمّا كان لقادة الفريق الثاني (نحن نتخيل) أطماعًا شخصية في تفريق الأسفار، استطاعوا اقناع الغالبية العظمى من القوم بخطتهم، فخوفهم. وكان ذلك مدفوعًا بتصديق إبليس عليهم ظنه. فالشيطان لا يملك إلا أن يدعو القوم ليستجيبوا له، لكنه لا يمكن أن يكون لهم ظهيرًا:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

وهو لا يملك إلا أن يخوف أولياءه:

- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 175]

ولو أن القوم تمسكوا بمثل ما تدعوا إليه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 173-175]

لانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

لكن لمّا كانت الغالبية العظمى منهم ممن يتبعون الشيطان، كان إبليس بذلك قد صدق عليهم ظنّه. فوقع في قلوبهم الخوف. فظن إبليس (وتخويفه لهم) هو ما نشره بينهم شياطين الإنس (الكهنوت الديني) فيهم بما أوحى إليهم شياطين الجن:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام: 112-113]

فصغت أفئدة الذين لا يؤمنون بالأخرة ورضوه، فاقترفوا ما هم مقترفون. ولو دققنا في مفردات قصة سبأ لوجدنا أنهم في شك من الآخرة:

- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: 20-21]

نعم، لقد نجح الشيطان في تخويفهم، لأنهم بكل بساطة لم يكونون ممن يؤمنون بالآخرة بل هم منها في شك. فانظموا إلى صف شياطين الإنس، فكانوا من الذين أيدوا خطة مباعدة الأسفار. وبالفعل انطلقت رحلتهم في غير الموعد الذي قدّره الله ليسيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين، فما كانت نتيجة ذلك إلا أن جعلهم الله أحاديث ومزقهم كل ممزق.

السؤال: كيف أصبحوا أحاديث بسبب ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما انطلق القوم في مجموعات، تحمل كل واحدة منهم سفرًا من تلك الأسفار، تشتتوا في الأرض بين القرى الظاهرة. فما عاد أحد يعرف ما حل بكل واحدة من تلك المجموعات، فأصبحت أخبارهم يتم تتناقلها بينهم بقصص (وروايات) مختلفة (وربما متضاربة)، فكانوا أحاديث. ولو أن خبرهم كان معلومًا يقينًا، لما اصبحوا أحاديث. فقصة أي شخص رحل من بلد إلى بلد آخر تصبح أحاديث بين الناس عندما لا يكون متوافر عنها معلومة أكيدة بما حل بذلك الشخص في رحلته من أولها إلى آخرها. فلو أن شخصًا – مثلا- ترك قومه في رحلة في الأرض، وما عرف بالضبط أين ذهب ذلك الشخص، وما عرف خط سير رحلته من بدايتها إلى نهايتها، وما عاد الشخص نفسه ليروى ما حلّ به في تلك الرحلة، فلن تكون قصته بعد ذلك بين الناس أكثر من أحاديث، كل يرويها بطريقته بناء على ما وصله من خبر ذلك الشخص في فترة ما. فربما يكون شخص قد وصله خبر ما عن ذلك الرحالة كأن يكون قد شوهد في أرض كذا في فترة ما، وقد يكون شخص آخر قد وصله خبر تواجد (أو مشاهدة) ذلك الرحالة نفسه في فترة ما في بلد غير تلك التي رواها الشخص الأول. وهكذا. فتصبح قصة ذاك الرحالة غير العائد بنفسه ليست أكثر من أحاديث بين الناس، يصعب القطع بصحة أي من تلك الروايات المتعددة (وربما المتضاربة) التي تناقلها الناس عنه.

وهذا الأمر لم يقتصر على مجموعة واحدة من بني إسرائيل الذين باعدوا أسفارهم، بل ينطبق كذلك على كل المجموعات بدليل أن الله قد مزقهم كل ممزق:

- ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ [سبأ: 19]

نعم لقد تمزق بنو إسرائيل الذين رحلوا من سبأ باتجاه الأرض المقدسة كل ممزق مكانيًا، وتباعدوا زمنيًا، فكانوا جميعًا أحاديث. لأنهم ببساطة باعدوا بين أسفارهم (أي انتقلوا على فترات متباعدة بأفواج متقطعة وسلكوا طرقًا متنوعة)، وما صبروا للخروج بالموعد المحدد الذي قدّره الله لهم ليسيروا فيها ليالي وأياما آمنين جملَة واحدة.

دعنا نتوقف هنا للحظة لنوجه الرسالة التالية إلى بني إسرائيل وإلى العالمين أجمعين: نعم لقد كتب الله لبني إسرائيل وراثة الأرض، وطلب منهم دخولها من بابها باستخدام المفتاح الحقيقي الذي يفتح ذلك

الباب، فيكونوا هم الغالبين. وفي الوقت ذاته، فإن الله قد قدر ذلك أيضًا زمنيًا. فليس لبني إسرائيل الحق أن يدخلوا الأرض المقدسة متى شاءوا (إن كانوا هم خارجها)، بل عليهم أن يصبروا ليدخلوها بوقت مقدر آمنين. فلا يجب عليهم إذًا أن يتعجلوا دخولها في غير الوقت المقدر لهم. ولو أنهم فعلوا لكان خيرًا لهم. وإن هم لم يفعلوا، فسوف يكونوا أحاديث وسيمزقهم الله كل ممزق. إن الفكرة التي نحاول الترويج لها بسيطة، مفادها أن رحلة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة يجب أن تكون مقدرة زمنيًا.

السؤال: متى يجب أن يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة فلا يكونوا أحاديث ولا يمزقهم الله كل ممزق؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا: يكون ذلك ممكنًا متى ما عرفوا التقدير الإلهي لهم بدخول الأرض المقدسة.

السؤال: ومتى يكون ذلك؟ وهل ذلك التقدير يمكن معرفته؟

جواب مفترى خطير جدًا جدًا: نعم. إنه موجود عند الفئة المؤمنة التي لم يصدق عليهم إبليس ظنه. فلقد كان من بينهم فريق يعلم أن الأسفار يجب ألا تُباعد وأن الرحلة مقدّرة، وأن السير فيها ليالي وأيامًا آمنين يجب أن تنطلق في الوقت الذي قدّره الله.

السؤال: ومتى هو ذلك الوقت؟

رأينا المفترى: بعرف وبديش أقول. أنا حر. انتهى.

السؤال: لماذا اختار الغالبية منهم مباعدة الأسفار؟

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن السبب في ذلك هو شياطينهم من الإنس الذين خططوا للاستئثار بتلك الأسفار لمطامع شخصية لهم. فلقد كان بينهم من الكهنوت الديني (العلماء) الذين يريدون الفوز بتلك الأسفار بما فيها من علم عظيم لتكون السلطة بيدهم مسلطة على الدوام على رقاب الضعفاء من العالمين. فلقد كانت خطتهم على نحو أن لا تبقى تلك الأسفار مجتمعة، لأنهم بذلك لن يستطيعوا وضع يدهم عليها لتحقيق مآربهم الشخصية. فهؤلاء لا شك هم من الذين يريدون أن يكتموا ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه الله للناس في الكتاب:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]

فهؤلاء الشياطين لا يريدون نشر المعلومة للجميع، لأنهم بذلك يخسرون مفاتيح القوة التي يتسلطون بها على رقاب العباد. فلو بقيت الأسفار مجتمعة، لما استطاع هؤلاء "العلماء الخبيثين" التحكم برقاب الجهلاء من الناس، لأنهم بذلك يخسرون كل أسباب القوة الشخصية التي تميزهم عن العامة من الناس. لكن عندما تباعد تلك الأسفار، فإنهم سيستطيعون كتمان العلم، وبالتالي التفرد به، ومن ثم تسليطه على رقاب العباد، فيتلاعبون بهم كالدمى. ولا نشك قيد أنملة أن منبع العلم في بني إسرائيل في كل مجالات

المعرفة مصدره تلك الأسفار العظيمة. فكل من وقعت يده على سفر من تلك الأسفار حاز على علم عظيم، فأخرج منه للناس ما يريد، وأخفى الكثير منه، ليبقى متحكمًا متسلطًا. دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة التالية التي تصف سلوك هؤلاء الذين كانت التوراة التي أنزلها الله هدى ونورًا للناس أجمعين كيف جعلوها قراطيس يبدون منها ما يريدون ويخفون كثيرًا منها:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]

فنقول لهؤلاء من هذا المنبر ما قد لا يريدون سماعة ممن هم من مثلنا (من الأعراب): لقد بارت تجارتكم بآيات الله لأننا بفضل الله ومنّة منه نملك هذا:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: 92]

السؤال: ألا ترى أنك تسلك مسلك بني إسرائيل الذي تنتقده به؟ ألم تحاول قبل قليل أن تخفي المعلومة عنا؟ فما الذي يجعلك تختلف عنهم في مثل هذا السلوك؟ لم إذًا لا تقول لنا متى هو الوقت المقدر لدخول بني إسرائيل الأرض المقدسة؟ يجادلنا صاحبنا بالحجة الدامغة.

رأينا المفترى: أنا لن أحجز المعلومة للأبد، لكني سأبوح بها متى ما أذن الله لنا بذلك. ولكني على علم أن هذا ليس وقتها. فالله وحده أسأل أن يعلمني من لدنه علما لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع البصير.

السؤال: كيف كان يمكن أن تسير رحلتهم لو أنهم لم يباعدوا بين أسفارهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو لم يباعدوا بين أسفارهم، لساروا فيها ليالي وأيامًا آمنين.

السؤال: وكيف كانوا سيتاجوزون تلك القرى الظاهرة لو أنهم خرجوا بالوقت المقدر من الله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كان الله قد قدر فيها السير تقديرًا:

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 18]

كان بإمكانهم أن يسيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان التقدير الإلهي مبني على أن تلك القرى هي قرى ظاهرة. لكن في الوقت ذاته كان هناك وقت محدد لو أن القوم التزموا به، لما كانت يد القرى الظاهرة ستصيب القوم المرتحلين من بني إسرائيل بأذى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأنها قرى ظاهرة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كانت تلك القرى هي قرى ظاهرة، كانت جميها ذات قوة، لكن لم تكن واحدة منها تستطيع أن تقضي قضاء مبرمًا على الأخرى. فالظهور هو النصر:

- ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: 29]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

فلو سار بنو إسرائيل بخطة الرحلة زمانيًا ومكانيًا، لكان ذلك في وقت قدره الله، فتكون تلك القرى (نحن نتخيل) منشغلة ببعضها البعض. ولكان دخول بني إسرائيل عليهم في ذلك الوقت لن يشكل هاجسًا لتلك القرى لإنشغالها بحروب متكافئة بين بعضهم البعض.

السؤال: ما الذي كان من المفترض من بني إسرائيل فعله للمرور بتلك القرى ليالي وأيامًا آمنين؟

رأينا المفترى: أن يدخلوا الباب سجدا، وأن يقول كلمة واحدة فقط.
السؤال: وما هي تلك الكلمة؟
رأينا المفترى: إنها كلمة "حطة".
الدليل

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: 58]

نعم، كان على بني إسرائيل أن يقولوا كلمة واحدة إذا دخلوا تلك القرية، ألا وهي كلمة حطة (وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ).

السؤال: ما معنى حطة؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن مفردة حطة الواردة في هذه الآية الكريمة (وفي غيرها) تعني المكوث في تلك القرية على أنها "محطة" عبور. أي يكون مرورهم بالعبور (Transit). فكلما دخل بنو إسرائيل قرية ليست من قراهم كان عليهم أن يطمئنوا أهل تلك البلاد بأنهم غير ماكثين فيها إلى الأبد، وأن تواجدهم فيها ليس أكثر من محطة في طريق عبورهم إلى ما بعدها. لكن ما الذي فعله بنو إسرائيل؟ هل فعلًا قالوا حطة عندما دخول تلك القرية؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. لقد بدل القوم قولًا غير الذي قيل لهم. فما كانت النتيجة إلا على نحو ما لا يسرهم ولا يرضيهم. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- تتمة السياق القرآني ذاته:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة: 58-59]

السؤال: كيف بدل القوم قولًا غير الذي قيل لهم؟

رأينا المفترى: لقد دخلوا تلك القرية فما كان قولهم على نحو أن مكوثهم فيها هو حطة (مؤقتًا)، ولكنهم بدلوا ذلك، فمكثوا فيها على سبيل الديمومة. فكانت عاقبتهم الرجز من السماء بما كانوا يفسقون.

نعم لقد فسق بنو إسرائيل، فما نفذوا الأمر الإلهي كما طُلب منهم، فكانوا فاسقين. ولذلك استحقوا بجدارة أن يحرموا من وراثة الأرض. فكلما فسق بنو إسرائيل عن الأمر الذي قيل لهم، كان العقاب الإلهي لهم على نحو تحريم وراثة الأرض المقدسة عليهم. وهنا لا ننسى أن نستذكر فسقهم مع موسى عندما طلب منهم دخول الأرض المقدسة، فكانوا قوما فاسقين، فحرموا منها وتاهوا في الأرض:

- ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة: 21-26]

ولو دققنا في السياق القرآني التالي من هذا الجانب، لوجدنا أن بني إسرائيل قد قيل لهم مثل ما قيل لهم سابقًا، وبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم:

- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٢﴾ [الأعراف: 161-162]

نعم، لقد كان بنو إسرائيل ظالمين لأنهم بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم. فكلما سكن بنو إسرائيل قرية في الأرض غير قراهم المباركة، كان عليهم أن يعلموا أن مكوثهم بها ليس أكثر من مكوث مؤقت، لكن عندما بدلوا ذلك، وسكنوا القرى على سبيل الدوام، كان العذاب الإلهي يصيبهم بما كانوا يفسقون وبما كانوا يظلمون على نحو حرمانهم من وراثة الأرض المقدسة التي كتب الله لهم. انتهى

السؤال: وكيف سيدخلوا الباب سجدًا؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا لمفردة السجود في أكثر من مقالة سابقة لنا، وافترينا الظن في جميعها أن السجود يعني الطاعة والخضوع للأمر كما طلب الله من الملائكة السجود لآدم، وكما خر إخوة يوسف له ساجدين. إذًا، كان على بني إسرائيل أن يدخلوا تلك القرى الظاهرة سجدًا، فيطيعوا قوانين البلاد التي يحلّوا بها. ولا يستحدثوا لأنفسهم قوانين خاصة تخالف تعاليم البلد المتواجدين فيه. ولو دخل بنو إسرائيل باب القرى سجدا، وقالوا حطة، لنجحوا في عبورها آمنين إلى الأرض القدسة التي كتبها الله لهم. انتهى.

نتائج مفتراة من عند أنفسنا:

وراثة الأرض المقدسة من حق بني إسرائيل

عليهم أن يدخلوها من الباب

عليهم أن يحوزوا على مفتاح ذلك الباب

عليهم أن يدخلوها بموعد مقدر من الله

عليهم أن يمكثوا في كل قرية ويأكلوا من طيبات ما رزقهم الله فيها، لكن عليهم أن يعتبروا تلك القرى ليست أكثر من محطة (مكوثًا مؤقتًا)

عليهم أن لا يسكنوا أي قرية من قرى الأرض على سبيل الدوام

عليهم أن يدخلوا تلك القرى سجدا، فيلتزموا بقوانين البلاد التي يتواجدون فيها، لأنها ببساطة ليست بلادهم، وهم موجودين فيها كظيوف فقط، يحترمون خصوية صاحب البيت المستظيف لهم.

عليهم أن يجتمعوا جميعًا، فلا يباعدوا بين تلك الأسفار التي يحوزون عليها

عليهم أن لا يجعلوا تلك الأسفار قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا منها

عليهم أن لا يستخدموا ما في تلك الأسفار من علم عظيم للسيطرة على رقاب العالمين

عليهم أن يبينوا للناس كافة مصدر ذلك العلم فيبينوه للناس، ولا يكتمونه أبدًا

إذا لم يلتزم بنو إسرائيل بهذه الشروط، فهم من الفاسقين، وهم من الظالمين، وسيكونون أحاديث، وسيمزقهم الله كل ممزق.

عليهم أن يعلموا أننا لسنا بحاجة لهم إن لم يفعلوا ذلك لأننا نملك الكتاب الذي هو مهيمن على كل ما سبق، فالله الغني عنهم إن لم يكونوا قومًا مؤمنين

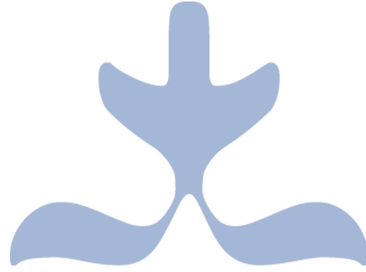
عليهم أن يفهموا أن هذا منهجنا:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64]

وللحديث بقية بإذن الله

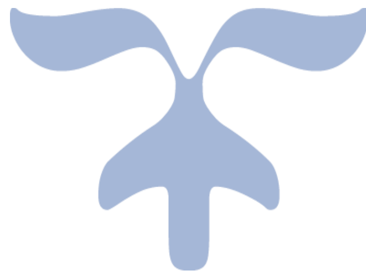
اللهم ربنا ندعوك وحدك أن نكون من عبادك الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً. ونسألك وحدك أن نكون من عبادك المسلمين، وأن تعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن تزيدنا علماً، وأن تهدينا لأقرب من هذا رشَداً. ونعوذ بك أن نكون ممن يصدق عليهم إبليس ظنه. وأسألك أن لا نكون ممن يفترون عليك الكذب أو ممن يقولون عليك ما ليس لهم بحق. وكما أدعوك ربي أن تعلمني من لدنك علماً لا ينبغي لأحد غيري، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، إنك أنت السميع العليم.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد معتصم المقداد
بقلم: د. رشيد الجراح
4 نيسان 2020



جغرافية القرآن

لماذا هاجر الرسول من مكة إلى المدينة ؟



لماذا هاجر الرسول من مكة إلى المدينة؟

سنحاول في هذه المقالة تقديم رأينا المفترى الذي نظن أنه غير مسبوق في سبب هجرة النبي إلى المدينة بعد فترة من دعوته التي بدأت في مكة، رافضين جملة وتفصيلا الفكر الشعبي الدارج عن قصة الهجرة، خاصة ما يتعلق بدافعها. فلقد وصلتنا آراء أهل الدراية كما سطّرها لنا أهل الرواية في مؤلفاتهم أن هجرة النبي من مكة إلى يثرب على وجه التحديد كانت مدفوعة بعاملين متلازمين، وهما:

1. رفض أهل مكة دعوة النبي الكريم، وإلحاق الأذى به والتضييق عليه، ومن ثم إخراجه منها
2. رغبة النبي في إيصال رسالته في موطن آخر يجد فيه القبول والتصديق

وسنحاول في الصفحات التالية تبيان أن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، مسطرين – بالمقابل - الافتراءات التالية التي نظن أنها من عند أنفسنا:

افتراء (1): نحن نظن أن محمدا لم يخرج من مكة بسبب تضييق أهل مكة الخناق عليه وعلى أصحابه

افتراء (2): نحن نرفض أن يكون أهل مكة بمجموعهم هم من أخرجوا النبي منها

افتراء (3): نحن نعتقد أن الذين أخرجوا محمدا من مكة هم فقط الذين كفروا من أهل مكة.

افتراء (4): نحن نظن أن محمد لم يتوجه إلى المدينة لأنها ستكون المكان الذي سيلاقي فيها القبول والتصديق

علاقة الخروج بالعذاب

السؤال: ما الذي أخرج محمدا من مكة إذن؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: نحن لا نجد في كتاب الله ما يثبت أن أهل مكة بمجملهم قد أخرجوا محمدا من مكة (كما روج لذلك الفكر الشعبي الدارج وشاهدنا في فيلم الرسالة الشهير). ولكن الذي نجده في كتاب الله في هذا الخصوص هو قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: 30]

فنحن نفهم من هذا السياق القرآني أن جلّ ما حصل من أهل مكة هو المكر بمحمد في واحدة من خيارات ثلاثة، هي: ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. والمتدبر للنص القرآني ربما يجد بأن القوم لم يحسموا أمرهم في أي من هذه الخيارات الثلاثة سيكون قرارهم النهائي.

ولو دققنا في هذا السياق القرآني لوجدنا أن المكر بمحمد قد صدر من قبل الذين كفروا فقط (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا). فلم يكن أهل مكة بمجموعهم قد مكروا بمحمد، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في سياق قرآني آخر:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

فهذه الآية الكريمة (كما نفهمها) ربما تصدق الرواية التاريخية بأن من حاول اللحاق بمحمد إلى الغار (حيث كان يتواجد مع صاحبه) هم فعلا الذين مكروا بمحمد، وهم فعلا الذين أخرجوا محمد، ولا دخل لأهل مكة بمجموعهم بما فعلت هذه الفئة من أهل مكة.

وهنا لا نتردد أن نبدأ النقاش في هذه القضية بالافتراء الخطير التالي الذي نظن أنه فعلا غير مسبوق: لم يعمد أهل مكة بمجموعهم على إخراج محمد من مكة إطلاقا؟ وما الذي كان يمكن أن يختلف لو أن أهل مكة جميعهم قد اتخذوا قرارا بإخراج محمد من مكة؟ فما الفرق بين أن يخرج أهل القرية بمجموعهم الرسول الذي بعث فيهم أو أن يخرجه فئة منهم فقط؟

السؤال: أين الدليل على أن أهل المدينة قد يجمعوا أمرهم جميعا على إخراج رسولهم من المدينة؟

جواب مفترى: نحن نظن أننا نجد الدليل على ذلك في قصة لوط مع قريته:

- ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: 56]

لاحظ – عزيزي القارئ- كيف أن القول قد صدر من القوم بمجموعهم (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ)، وكان قرارهم على نحو أن يخرجوا آل لوط من قريتهم (أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ).

السؤال مرة أخرى: لماذا لم يكن أهل مكة هم من أخرجوا محمدا منها؟

رأينا المفترى: نحن نظن لو أنهم فعلوا ذلك، فأخرجوا محمدا فعلا من مكة، لكانت العاقبة لا محالة وخيمة، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: 76]

فهذه الآية الكريمة تدلنا – بما لا يدع عندنا مجالا للشك- بأن أهل مكة لم يخرجوا محمدا منها، لأن إخراجهم محمدا منها يعني أنهم لن يلبثوا خلافه إلا قليلا. فلو تدبرنا الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أنها تسطّر سنة من سنن الله التي لا تبدّل في رسله. واقرأ عزيزي القارئ – إن شئت- الآية مرة أخرى في سياقها الأوسع:

- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: 76-77]

فلو أن قوم الرسول (أي رسول) عمدوا إلى استفزاز رسولهم ليخرجوه من الأرض، لنزل بهم العقب الإلهي المباشر، فما لبثوا خلاف رسولهم إلى قليلا. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن أهل مكة لم يستفزوا محمدا ليخرجوه من الأرض، لأنهم لو فعلا فعلوا ذلك، لما لبثوا خلافه إلا قليلا. ولربما وقع فيهم من العذاب ما يشبه ما وقع في الأقوام السابقة كقوم لوط مثلا:

- ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾ [النمل: 56-58]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: ما دام أن العقاب الإلهي لم ينزل بأهل مكة بعد خروج النبي منها، لذا يستحيل (نحن نفتري القول) أن يكونوا هم من أخرجوه منها. انتهى.

السؤال: إذا لم يكن أهل مكة هم من أخرجوا محمدا منها (كما تزعم)، فمن الذي أخرجه منها؟ وما الذي دفعه للهجرة منها إلى مكان آخر في الأرض؟

جواب مفترى: لقد خرج محمد من مكة بمحض إرادته (بعد أن وجد أن فئة محددة من أهل مكة تدبر لتمكر به).

سؤال: وهل كان اختيار محمد هذا بالخروج من مكة بقرار إلهي؟ فهل كان الله هو من طلب من محمد الخروج من مكة والتوجه إلى يثرب؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كلا وألف كلا. لم يكن خروج محمد من مكة بتوجيه إلهي. فالله (نحن نظن) لم يطلب من محمد أن يخرج من مكة، ولم يطلب منه التوجه إلى أي مكان آخر.

الدليل

نحن نظن أننا نستطيع تقديم أكثر من دليل لإثبات زعمنا بأن خروج محمد من مكة لم يكن بتوجيه (أو بطلب إلهي)، وأن القرار بالخروج من مكة والتوجه إلى المدينة كان قرار محمد نفسه.

السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستعجلا الإجابة؟

أولا، نحن نظن أن التوجيه الإلهي كان لمحمد بأن ينذر أم القرى ومن حولها:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]

فلقد جاء محمد بدعوته تلك إلى قوم ما أتاهم من نذير من قبله:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ [السجدة: 3]
- ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾ [يس: 5-7]

السؤال: ما الداع أن يغيّر محمد مكان دعوته؟ وما الداع أن ينتقل بدعوته إلى قوم آخرين؟ من يدري؟ فهل فعلها رسول قبله؟!!

ثانيا، كان محمد هو التصديق العملي لدعوة إبراهيم ليكون رسولا من رب العالمين في هذه البلده، وحصل ذلك عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 127-129]

لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا على النحو التالي: لقد كان محمد رسولا إلى أم القرى ومن حولها، كما كان رسولا إلى هؤلاء القوم الذين لم يأتيهم نذير من قبل، وهم من جاءهم كرسول لهم منهم (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ). فمحمد هو رسول مبعوث في هؤلاء القوم على وجه التحديد.

والحالة هذه، نحن لا نجد سببا في أن يطلب الله من رسوله ترك هذه البلدة والتوجه إلى غيرها مادام أنه قد أرسله إلى هؤلاء القوم فعلا كرسول لهم من أنفسهم:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: 2]

فقوم محمد الذي بُعث فيهم هم أميون، ورسولهم محمد هو الرسول النبي أمي:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]
- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]

فنحن نفهم أن قوم محمد أميّون وأن محمد نفسه أمّي وذلك نسبة إلى أم القرى (مكة):

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: 7]

سؤال: مادام أن محمدا هو الرسول النبي الأمي (نسبة إلى أم القرى) وما دام أن قومه هم الأميّون (أهل أم القرى)، فلم يتركها مهاجرا إلى مكان آخر وإلى قوم آخرين؟ فهل فعل ذلك رسول قبله؟ من يدري؟!!

ثالثا، نحن ننفي أن يكون خروج محمد من مكة قد جاء بطلب إلهي لأنه (نحن نفتري الظن) لو جاء خروج محمد من مكة بطلب من ربه، لكانت النتيجة كارثية بكل ما في الكلمة من معنى. فلو تدبرنا سنة الله في من سبق محمد من الرسول، لما وجدنا أن الله قد طلب من رسول له أن يخرج من البلد الذي أرسله الله فيها إلا وكان العقاب الإلهي لا محالة نازل بهذه القرية. فعندما طلب الله من هود الخروج من عاد، كانت النتيجة عقابا إلهيا عظيما:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 65-72]

وعندما طلب الله من صالح أن يخرج من تلك القرية، كانت النتيجة أن يتمتع هؤلاء القوم في دارهم ثلاثة أيام فقط:

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٧٤ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 73-79]
- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 65-67]

وعندما طلب الله من شعيب الخروج من مدين، كانت النتيجة كارثية:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٧ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ

رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ
إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: 85-93]

وعندما طلب الله من لوط أن يسري بأهله بقطع من الليل، جعل الله عالي تلك القرية سافلها وأمطرهم حجارة من سجيل منضود:

- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: 80-84]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ما كان الله ليطلب من رسول له أن يخرج من القرية التي أرسله فيها إلا لإنزال العقاب بالقوم بعد أن كذّبوا رسالة ربهم. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأنه لو جاء خروج محمد من مكة بطلب من ربه لتبع ذلك على الفور عذاب إلهي شديد يحيق بالذين كفروا.

إذن، دعنا نلّخص النقاش السابق على النحو التالي:

⇐ لم يكن أهل مكة بمجموعهم هم من استفزوا محمدا ليخرجوه من الأرض، لأنهم لو فعلوا ذلك لما لبثوا خلافه إلا قليلا، أي لأنزل الله بهم العذاب المباشر

⇐ لم يكن خروج محمد من مكة بطلب من ربه، لأنه لو حصل ذلك لنزل بهم العقاب المباشر على الفور

لماذا خرج محمد ؟

السؤال: لماذا خرج محمد من مكة إذن؟ يسأل صاحبنا مرة أخرى.

جواب مفترى من عند أنفسنا: لقد كان خروج محمد من مكة بقرار شخصي منه، وكان الدافع له هو حتى لا يحق القول على أهل مكة، لنصل بذلك إلى النتيجة المفتراة الخطيرة جدا جدا التالي: كان محمد (الرسول النبي الأمي) هو من صدّ الخطر الإلهي عن هذه البلدة (أم القرى) وعن أهلها (الأميين).

السؤال: ما معنى ذلك؟ ما الذي تريد أن تقوله؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق النظر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]

فهذه الآية الكريمة تسطر (نحن نرى) السنة الكونية بأن عذاب الله لا ينزل في أمة إلا بعد أن يبعث فيهم رسولا. فبعث الرسول في أمة هو الدليل الحاسم على أن عذاب الله لا محالة نازل. لذا، نحن ندعو الناس (علماءهم وعامتهم) إلى إعادة التفكر في نظرتهم إلى قضية بعث الرسول في أمة من الأمم. فغالبا ما ظن الناس بأن بعث الرسول في أمة هو أمر يدعو إلى الفرح والابتهاج، ويكأن لسان حالهم يقول أن القوم الذين بعث فيهم رسولا هم من أصحاب الحظ العظيم. ويكأن الكثير منهم يغبطون تلك الأمم على "نعمة" بعث الرسول فيهم وفي الوقت ذاته يتحسرون على أنفسهم لما لم يبعث الله فيهم رسولا. وهذا – برأينا – هو الخطأ بعينه، فلا يجب (نحن نظن) أن يفهم الناس مسألة بعث الرسول في أمة من الأمم على تلك الشاكلة. فعلى العكس تماما، نحن نظن أن بعث الرسول في أمة هو أمر لا يجب أن يدعو إلى الابتهاج والسرور، بل هو النذير المبين، لأن العاقبة لا محالة ستكون وخيمة على القوم الذي بعث الله فيهم الرسول. فلو تدبرنا سير الرسول جميعا، ابتداء من عند نوح لوجدنا أن العذاب قد نزل بكل الأقوام التي بعث الله فيهم رسولا:

- ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾ [الكهف: 59]

لذا، لو ظهر أحد من الناس على مر الأزمان يدّعي بأنه رسول من رب العالمين، فكيف يمكن لنا أن نصدّق أنه فعلا رسول من رب العالمين؟ فما هو الدليل الحاسم على أنه فعلا رسول للناس من ربهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لكي يكون من يدعي الرسالة فعلا رسولا من رب العالمين، فلابد أن تنتهي رسالته بإيقاع العذاب على القوم، فالرسول الحقيقي هو من ينذر قومه بلزوم وقوع العذاب عليهم إن هم كذبوا دعوته، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في الآيات الكريمة التالية على لسان كثير من رسله:

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]
- ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77]
- ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 32-33]
- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ [الأحقاف: 22-23]

نتيجة مفتراة: من كان رسولا من رب العالمين فهو من وعد القوم بوقوع العذاب عليهم إن هم رغبوا عن التصديق بدعوته. فعذاب الله لا محالة نازل بالقوم الذين بعث الله فيهم رسولا مادام أنهم قد كذبوا رسوله. انتهى.

فالدجالون الذين ظهروا على مر الأزمنة يدعون أنهم رسول من ربهم إلى الناس قد كانوا فعلا كاذبين لأن نهاية رسالتهم لم تنتهي بإيقاع العذاب على الأقوام الذين ظهروا فيهم.

السؤال: ما الذي يكف العذاب الإلهي عن أن ينزل بأي أمة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك عاملان اثنان فقط هما كفيلان بأن لا يقع العذاب الإلهي على أي أمة، وهما ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]

فما يمنع نزول العذاب الإلهي هما:

1. أن يكون الرسول فيهم، فمادام الرسول متواجدا بين ظهراني القوم فلن ينزل بهم عذاب من الله. لذا كانت السنة الإلهي على الدوام على نحو أن يطلب الله من رسوله الخروج من القرية التي حق عليها القول ليدمرها تدمير، كما حصل مع نوح و هود وصالح وشعيب ولوط. وقد تعرضنا في مقالات سابقة لنا للسبب الذي نظن أن من أجله لم يلحق هارون بموسى وظل متواجدا بين ظهرانيهم حتى بعد ظلالة السامري للقوم. فلو خرج هارون والمؤمنون معه من بين القوم لنزل (نحن نفتري القول العذاب بطائفة كبيرة من بني إسرائيل حينئذ. لذا ظل هارون متواجدا فيهم ليرقب قول أخيه موسى فيهم:

- ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ [طه: 94]

2. أن يكون القوم مستغفرون، فمادام هناك في الأمة من يقوم بفعل الاستغفار، فهذا كفيل بأن يمنع العذاب الإلهي أن ينزل بالأمة كلها. فالاستغفار هو الكفيل بأن يمنع نزول العذاب في أمة لا يكون الرسول متواجدا فيها فعليا، قال تعالى:

- ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات: 17-18]

والاستغفار لا يمنع نزول العذاب الإلهي الجماعي، ولكنه أيضا مدعاة لجلب الخيرات كما جاء على لسان هود:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52]

وكما جاء على لسان نوح من قبل:

- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: 10-12]

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون من اللذين بالأسحار هم يستغفرون - آمين)

وهذا برأينا يفسر السبب في عدم نزول العذاب الإلهي الجماعي الشامل في بني إسرائيل على وجه التحديد. فلقد ظلت طائفة من بني إسرائيل من المؤمنين تحت جميع الظروف والأحوال، فكان خطابهم لموسى على النحو التالي:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

وظلت طائفة منهم مؤمنة بربها، صابرة على الأذى حتى بعد أن رفع المسيح عيسى ابن مريم إلى ربه. فبنو إسرائيل هم أصحاب الإرث النبوي لإبراهيم الذي كان بذاته أمة:

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل: 120]

(وسنتحدث عن هذه الجزئية لاحقا بحول الله وتوفيقه)

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، إنه هو الواسع العليم - آمين.

نتيجة مفتراة: باستثناء بني إسرائيل، نزل العقاب الإلهي الجماعي بكل القرى التي بعث الله فيهم رسولا. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بموضوع هجرة الرسول من مكة؟

رأينا: لما كان محمد يعي تماما سنن الله الكونية، تصرف بكل حكمة، جعلته فعلا رسولا يستحق بجدارة أن يكون رحمة للعالمين:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

من هو محمد؟

فإلى الذين لا يعرفون محمدا أصلا، وإلى الذين صوروا محمد "ساعي بريد" لا تتعدى مهمته نقل خبر من طرف إلى طرف، تعالوا معنا لنظهر لكم شيئا جديدا يخص شخص هذا النبي الكريم.

أما بعد،

يعلم محمد تمام العلم أن العذاب الإلهي لا محالة سينزل بالأمة التي تستفز رسولها ليخرجوه من الأرض، كما يعلم تماما بأن العذاب لا محالة نازل بهم أيضا متى خرج الرسول من بين ظهرانيهم بطلب مباشر من ربه، كما يعلم أيضا بأن الطلب الإلهي من الرسول بالخروج من بين قومه الذي بعث فيهم لا يمكن أن يحدث ما دام أن هؤلاء القوم يستغفرون. لكن – بالمقابل - إذا وصل الأمر إلى حد أن لا يكون في القوم بعد من هو من المستغفرين، وأنه لن يكون بين القوم بعد من سيؤمن بدعوة الرسول، فإن الطلب الإلهي لا محالة قادم إلى الرسول بأن يخرج من القرية لينزل الله بها العقاب الأليم. فعندما وصلت دعوة نوح إلى طريق مسدود، جاء الوحي لإلهي لنوح على النحو التالي:

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: 36]

لذا، جاء الطلب الإلهي التالي أن يبدأ نوح بتجهيز الفلك، لأن العذاب لا محالة واقع بالقوم:

- ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]

وهكذا كانت قصة عذاب قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط. ولو دققنا في السياقات القرآنية أكثر، لوجدنا أنه ما أن يصل القوم إلى هذا الحد من التعنت في قبول دعوة الرسول، حتى يأتي الوحي الإلهي بأن الطريق قد أصبح مسدودا تماما، وأن العذاب لا محالة واقع بالقوم، فتكون تكون ردة فعل الرسول (أي رسول) على صغتين اثنتين:

1. الدعاء على قومه بالهلاك، كما فعل نوح:

- ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]

وكما جاء على لسان موسى:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88]

2. التولى عن القوم وعدم الأسى عليهم، كما جاء على لسان شعيب مثلا:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: 93]

أو كما جاء على لسان صالح من قبل:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: 79]

السؤال: ما الذي فعله محمد (رسول الرحمة للعالمين)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تفقدنا سيرة الرسل جميعا قبل محمد لما وجدنا أن أحدا منهم قد هاجر من البلدة التي أرسله الله فيها. فيبقى الرسول في تلك البلدة بين ظهراني قومه حتى يصل أمر الدعوة إلى الله إلى الحد الذي لا رجعة فيه، فيأتي الوحي الإلهي للرسول بالخروج من القرية مادام أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، فيعمد الرسول إلى دعاء ربه بهلاكهم، فلا يبقى منهم أحدا، أو يتولى عنهم غير آسف عليهم مادام أنهم قد كفروا بربهم. وهذا ما لم يفعله محمد إطلاقا. فكيف تصرف محمد؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا نظن أنها غير مسبوقة: يمكث محمد في قومه فترة طويلة من الزمن يدعوهم إلى كلمة التوحيد، والإيمان بربهم الذي خلقهم، فيؤمن له نفر قليل من أهل تلك القرية، بينما يجد محمد أن الغالبية الساحقة من أهل تلك القرية غير راغبين في دعوته، فيبذل قصارى جهده ليثنيهم عن ظلالتهم بالحكمة والموعظة الحسنة:

- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]

ولكن ذلك لم يجدي معهم نفعا، فينزل الله قرآنا يتلى على نبيه:

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: 56]

ويصر محمد على العمل على هدايتهم بكل الوسائل والطرق الممكنة، حتى ينزل الله قوله:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: 6]
- ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: 3]

ويستمر محمد في جهادهم بالكلمة الطيبة، مستميتا بدعوته لهم، لأنه يعلم يقينا أن العاقبة – لا شك- ستكون كارثية إن هم فعلا رفضوا الدعوة وأصروا على الكفر. فينزل الله تعالى قوله على رسوله الكريم بأن لا يذهب نفسه عليهم حسرات:

- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: 8]

وهنا (نحن نتخيل) يجد محمد أن دعوة قومه كادت أن تصل إلى خط النهاية، كما حصل مع جميع من سبقه من رسل ربه (نوح وهود وصالح وشعيب ولوط). فما الذي سيفعله؟ فهل يمكث فيهم حتى يأتيه الوحي الإلهي بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن كما حصل مع من سبقه من الرسل؟

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: 36]

وهل يدعو عليهم بالهلاك؟

- ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: 26]

أم هل سيتولى عنهم غير أسف ولا آس عليهم بما كان يصنعون بعد أن نصح لهم، فما أحبوا الناصحين:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: 79]
- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾ [الأعراف: 93]

جواب مفترى من عند أنفسنا: هذا ما لم يفعله الرسول المرسل رحمة للعالمين. فكيف سيتصرف محمد الآن وهو يعلم يقينا أن الخطر الداهم لا محالة نازل بهذه القرية وأهلها؟

رأينا: في خضم تلاطم هذه الأحداث المتسارعة، يجد محمد أن ساعة الصفر قد اقتربت، وأن النهاية لا محالة وشيكة جدا، وأن الوحي الإلهي لا محالة قادم إليه ليطلب منه الخروج (بمن آمن له) من هذه القرية، لينزل بها رسل ربه العذاب الأليم، في خضم مجريات هذه الأحداث اختار محمد نبي الرحمة (نحن نتخيل ونفتري) أن يهرب من القرية بأكملها، فلا يدع الرحلة تصل إلى خط النهاية سريعا، ولا يدع الخاتمة لتكون كارثية بعد وقت قصير. وهنا اختار محمد بنفسه أن يخرج من مكة كلها قبل أن يستفزه قومه ليخرجوه منها وقبل أن يأتيه الوحي الإلهي بالخروج منها. فكان ذلك تدبير محمد بنفسه للوقوف سدا منيعا لإيقاف العذاب الإلهي الذي كاد أن ينزل بمكة وبأهلها لو أن محمدا لم يخرج منه قبل فوات الأوان، وهنا (نحن نتخيل) نزل قول الحق ليمتدح محمد بكلمات ما حظي بهن رسول من قبله، فقال تعالى:

- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم: 4]

نعم، لقد تعجب الخالق بنفسه من خلق محمد. فبالرغم من كل ما فعل القوم به من الأذى المادي والمعنوي، وبالرغم من صدهم لكلمة التوحيد إلا أن هذا لم يكن ليجعل محمدا فضا غليظ القلب:

- ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: 159]

فقد بدأ محمد دعوة قومه إلى كلمة التوحيد بقلب ليس فظا ولا غليظا، ولم تكن ردة فعلهم العكسية لتثنيه عن طلب (لا بل وجلب) الخير لهم على الدوام، ولم يكن صدهم لدعوته ولا إلحاقهم الأذى به شخصيا ليغير من طبيعة قلب محمد. فما طلب أن يقع بهم العذاب ولا تولى عنهم غير آسف عليهم، ولكنه دبر الأمر بحكمة بالغة حتى استطاع أن يمنع نزول العذاب الأليهم بهم، فكانت هجرته إلى يثرب. ولو بدر من أهل يثرب ما بدر من أهل مكة، لما تردد محمد (نحن لا زلنا نتخيل ونفتري) بالهجرة مرة أخرى إلى قرية جديدة، فما كان محمد ليصل بدعوته إلى ما وصلت إليه دعوة الرسل السابقين. ولو أن محمدا فعل ذلك، لانتهت قصته كما انتهت قصص الأمم السابقة، ولما ظل ذكرها بين الأمم إلى يوم الدين. فأين أمة نوح؟ وأين أمة هود؟ وأين أمة صالح؟ وأين أمة شعيب؟ وأين أمة لوط؟

لكن بالمقابل، قال تعالى:

- ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]

هذا جانب من شخصية محمد (كما نعرفه) لمن لا يعرف محمدا، فهل أنتم موقنون؟

المدكرون: رشيد سليم الجراح
بقلم: د. رشيد الجراح
26 تموز 2016